مقبس ضوء بارد

لما عبد الكريم

"يموت فيّ شخص

ويولد شخص جديد

والميتُ أنا والمولود أنا .

خلايا جسدي تتجدد كلها

كل بضع سنوات حتى لا يبقى منها شيء مما كان .

عواطف نفسي تتبدّل

فأحب اليوم ما كنت أكرهه بالأمس

وأكرهه ما كنت أحب .

أحكام عقلي تتغيّر ،

فأصوّب ما كنت أراه خطأ

وأخطّئ ما كنت أجده صواباً ".

علي الطنطاوي

الإهداء

إلى..

أبي.. قيسي

إنّي أُحبُّك لو ما الحبُّ ينصفني
لبلغتُ سعيكَ صفواهُ و مرواهُ
يا كلَّ بعضي، وبعضُ الكلِّ أُشهدهُ
في لحظِ عينك حبّي يُعبدُ اللهُ

يا غرةَ نيسان ..أُحبُّك !

والذي يعلمه كلُّ من خطَّ حرفاً بقلمه،

يتحسَّسُ نوابضَ الوجع

أنّ الفكرةَ قد تحدوها حالة

وتلتبسُ الفكرةُ الحالةَ، فيتصيَّدها القلم

ويخلع عن الفكرة نمطية الحالة

يُخرجها من الشخصنة، وابتذال الضغائن

يغذوها ويوسعها فضاً، لتغدو محض فكرة!

كمثل عالِمِ الأحياء

وطبق عيّنته تحت مجهره

يكبّر ما في وسع آلته التكبير

بعد أن يصبغ عيّنته بصبغةٍ فارقة

فيهوي عليها بعينٍ بصيرة، تزيدها آلته حدّةً،

وإنّه على حالته تلك، يفحص ويُمحّص، يُباعد ويُقارب. .

حتى لتكاد أن تنطق العينة من تحت مجهره –تجهلها فيها– :

من أنا ! !

لمُاعبد الكريم

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق الإنسان، وعلمه البيان، والصلاة والسلام على من أوتي جوامع الكلم وعلى آله وصحبه ومن والاه. وبعد:

فلا شيء يخامر القلبَ ويسرُّه مثلُ كلمة طيبة اجتمع فيها حسنُ المقصد وجمالُ الفكرة وبلاغة الحرف. لا سيما في زمن شحَّ فيه الأدباءُ وعزّ البلَغاء!

وقد قرأت الكتاب الذي جادت به قريحة أختنا الأديبة **لمُاعبد الكريم** ... الموسوم بـ "**مقبسُ ضوءٍ بارد !**" فوجدته قد حوى من أصناف البيان أحسنَها، وهجرَ مِن أنواع العِيِّ أوهنَها، حيث لم تسلك صاحبتُه أساليبَ تعسف المتكلفين، ولا طُرُقَ ابتذالَ المستعجمين، فجاء عواناً بين ذلك يسر الناظرين.وهو عبارة عن نصوص بهية اجتمع فيه *كما اجتمع في أرومة مؤلفته* بلاغةُ أهل مصر وظرافةُ أهل الشام وإباء أهل فلسطين.

قد وظَّفَتْ مؤلفتُه *وفقها الله* أساليبَ الخطاب المتنوعة، معتمدةً على ما أوتيَتْ من بلاغة الحرف، وسلامة الفكرة، وجودة استقراء الواقع، لتخلص إلى إيصال أفكارها بأسلوبٍ متمكِّن، وعبارة رشيقة، فاستطاعت أن توظِّف الحرفَ والظرفَ (الواقع) لمصلحة الفكرة التي تريد إيصالها إلى ذهن القارئ، من غير يحتاج القارئ إلى مزيد تكلّف للفهم، أو إجهادِ فكرِهِ للوصول إلى مقصد الموضوع وعلّتِه، اللهم إلا أن تتعمد المؤلفة شيئا من الإبهام لتترك لكل قارئ خيار الفهم على حسب ذوقه وإدراكه !

كل ذلك مع تنويع الأسلوب البياني، فتجدها تارة تخاطب القارئ بأسلوب عصري واقعي درج عليه الناس واعتادوه، وتجدها تارة أخرى تستنهض أسلوب مقامات الهمداني والحريري .

وثمة الكثير من النقاط الإبداعية التي يجدر بي أن أقف عندها متأملا، ولكني لا أريد أن أصادر حق المؤلفة في طرح أفكارها، ولا أن أحرم القارئ من متعة مطالعة تلك النصوص.

وإجمالاً: فإن الأذواق تتنوّع في رؤية الجمال، وإنّ هذا السفر الجليل الذي كتبته أختنا المؤلفة يمتاز بحسب *رؤيتي* بالكثير من مكامن الحُسن "البيانية والفكرية"، والتي منها :

1. اختيار اللفظة المناسبة لسياق الكلام، وثمّة أمثلة كثيرة، أكتفي منها بقولها: (فما لي بقعقعة الألسنة من مراس). فالمؤلفة هجرت المفردة الشائعة: "الألسن" لتختار مفردة أخرى: "الألسنة" لتكون قريبة لفظاً ومعنى من "الأسنّة" لمناسبة القعقعة والمراس.
2. الابتعاد *نسبيا* عن السجع والاقتباس وكثرةِ المحسنات اللغوية.
3. كثرة الاستطرادات التي لا تبعد القارئ عن فهم أصل الموضوع، بل تلك الاستطرادات أشبه ما تكون بـ "تغيير جو نمط الكلام" لتنشيط القارئ وحثهِ على العودة إلى قراءة أصل الموضوع بنشاط وهمة أكبر.
4. توظيف المعاني بذكاء حاد، إلى درجة أن يُوظَّف الأمر المرغوب عنه ليبدو وكأنه مرغوب فيه! فها هي توظِّف البلاءَ لمصلحة النفس بأسلوب فذّ! كقولها: (وإن أخذتني محامل الغير *على حين غفلة* بخنجر الغدر وجدت في دمي المسكوب أمام ناظري تقدمة خير تحجم من جسدي ما فسد وإن أثخنت كيدا قلت في نفسي يا رب منك الخير ولو جاءني في أردية الشر يسعى). ومن ذلك التوظيف المستلطفِ: إظهارُ "اليأس" الذي هو مذموم *إجمالا* بمظهرٍ تحسيني، ليغدو كالأمر المستحسن في قولها: (اليأس أصل الأشياء جميعا، كما هو الحزن تماما، وكل ترهات مقاومته تعيدك إلى ذات النقطة المرهفة من اليأس الجميل، اليأس الذي معه تعتكف مع أمانك في صومعتك الخاصة).

5. مقدرة الكاتبة على الغور إلى مكامن النفوس، والإلمام بمعرفة المشاعر والعلاقات الإنسانية على اختلافها، وخصوصا في نصها المدرج تحت عنوان: (طرائق قددا) و (بينه وبينها).
6. المقدرة الفذة في تصوير الأشياء *بإيجابياتها وسلبياتها* أجملَ تصوير: (لا يعيب النارَ إلا مكتوٍ بها، ولا يزكيها إلا من أذهبتْ خبثه، وجلّت للناظرين سبائكه، بين المطهّر والجحيم).
7. الميل إلى حتمية الواقع، والابتعاد عن شواهق المثالية، مع المحافظة على الثوابت وروح المقاومة وعزة النفس. ونجد ذلك جليا في أكثر من عنوان ومنها: (وأنا أفضل الأباتشي).
8. قدرة الكاتبة على استقراء الواقع وتحرّي المشاعر في أمثلة كثيرة، منها قولها: (كالحب الأول مثلا عاصف صاخب، يسم الجلد ويصهر العظم، لكننا نعلم أننا لن ننالَه غالباً، سيتراجع في الذاكرة مكانا قصيا، لن يراوحه، لكنه في الأغلب لن يكتمل، كأن كل ذلك السحر أكبر من أن يتحقق....).
9. صياغة الحكمة بأسلوب يتناغم مع مختلف مستويات القارئين، وكمثال على ذلك: نصها المدرج تحت عنوان: (نملة الجبل) والصياغة الفلسفية لحقيقة الجمال في: (حكمة دعسوقة).

10. الصراحة الواضحة التي قد تقاربُ في نظر بعضهم درجةَ القسوة! ولا أدَلَّ على ذلك مِن أنثى تنقدُ سلباً صفاتِ بعض الإناث، في نصها المدرج تحت عنوان: (إياك وذي العتبة).
11. التشويق في صياغة الأحداث، والاعتماد على عنصر المفاجأة بعد ذلك، كما في النص المدرج تحت عنوان: (اللقاء الهندسي).

12. البراعة في التعبير نيابةً عن لسان الحال للشخص المقابل، حتى وإن كان عدواً! وكمثال: (صوت إسرائيل من أورشليم القدس).
13. الأسلوب التهكمي والهازل أحيانا كقولها: (إن سكبت لك المرق قالت: كل من جهدي وزق، وإن مدت لك الفرش، تبرمت: عقبى للنعش).

وختاماً: أسأل الله الموفقية الدائمة والإبداع المتواصل لأختنا الأديبة...

والحمد لله رب العالمين.

علي محيبس البصري

إمام وخطيب جامع الحضرة المحمدية

مدينة الفلوجة- العراق

تقدمة الكاتبة

أتأملُ أيامي الغابرات، وركائبها المثقلات ؛ أبعثر أوراقَها، وأنفض ما علق من غبار منصرمِها: مشمِّرةً عن ساعدي الهمَّة، مطلقةً أعنَّةِ البحث؛ علِّي أجدُ مَن ناصبته العداءَ يوما، أو أكننت له في الصدر بغضاً، أو بعض حقد.. فلا أجد إلا واهن عزمٍ من خصامٍ مشروط بأمد، يزول فور زوال مسبِّبه، أو ترتقه سعةُ الصدر، وخلائف السماح..!

وإن أصابني كيدُ حاسدٍ، أو لأواء قلوبٍ خمصت بها طاقتها من رضا = أجد لمبغضي بدل العذر ألفَ عذر. فإن قُلبت حياتي على إثر مهاذله، وجدت في أنوائها مِجنَّاً يوليني ترسه، فيصدُّ مزيد سهام.

وإن أخذتني محامل الغير –على حين غفلةٍ – بخنجر الغدر، وجدت في دمي المسكوب أمام ناظري: تقدمة خيرٍ، تحجم من جسدي ما فسد.

وإن أُثخنت كيداً، قلت: يارب، منك الخير، ولو جاءني بأردية الشرِّ يسعى..!

لست بالتي لا تأتي المنكر من الفعل: ذنوباً ومعاصيَ تُقترف، ولكنني أتعفف عن إتيانها حرفا، وإن جمعتني بها المحافل، ولَّيت دبري ولم أُعقِّب؛ فما لي بقعقة الألسنة من مراس، وما كنت بفنون شحذها بالحاذقة، بل لطالما كنت لأنصالها المسنَّنة هدفاً تناله في الخبيئة والعلن، سوءٌ من لدنها تؤتينيه، فأذود بالصدقة لا أتبعها منَّاً ولا أذى..!

هذي مشاهد أيامي، أعيشها واقعا، ليست من الملائكية بحال، ولكنه إعفافُ كبَّابِ الوجوه، وصدرٌ يهجع خاليا، ومُنيةُ أوب..!

ولمّا كان هذا حال صخب أيامي التي أحياها في واقعي بين الربع، أتقلَّبُ فيها: فتكابدني حينا، وتهادنني أحيانا، فما قولكم بحالي في عالمنا الذي نحياه هنا: قوامه الحرف، ورسوله البيان!

أما كان أجدى بي ألّا أُحمِّلُ سكانه من أدران الروح ما استعففت عن إتيان أهل واقعي الزخم والنابض به!

وأنا التي وجدت بين ظهرانيكم أهلاً مع أهلي، وخلّاناً مع خلّاني، ورفيقات روح، أجاوركم وحق الجار لكم علي، ما جُبلت عليه: حرفاً يأبى المنكر، في الحق أبلج...

فما اتخذت منكنَّ إلا أخوات السرر المتقابلة، ورفيقات الحياض، ومنكم إخوان صدق، ورجالات فهمٍ وعلمٍ وأدب، مكانهم فوق الرؤوس.

فإن كنت أُثقل الحرف بأمراض القلوب، وجعجعات ندوب الروح، فما هي إلا التقاطات ناقلٍ نبيه، عن دنيا واقعه الذي يعيشه على أرضه: يحسُّه، يلمسه، ويشتمَّه، فيرسم بالحرف، ويفصِّل البيان...

وإنّي لأعيذكم كلكم منها، ومالي أفعلها والصورة أحادية البعد، قوامها الحرف، ومنظورها البيان!

كلٌّ يُظهر من نفسه ما سرَّها إظهاره، ويغفل عن كثير: طبيعةٌ معلومةٌ، ومفهومةٌ...

وإنّي إن أكن فعلت = فقد ظلمت، وإن جرؤت = فقد استجلبت ويلاً وثبورا، فلست بظل الله على أرضه؛ فأحكم على عبيده، ولا بسيفه المسلط على الرقاب؛ فأُنفِّذ حكمي: حرفاً دامغاً مُبرما، بل وما كنت مبرِّئةً نفسي أبداً من رذاذٍ أصاب ذيلي أنا، أو به خضت، فغمرني حتى كدت أغرغر..!

هي أمانة الحرف والنقل بالتجويد تبيانا، والأمثلة من حولنا – واقعاً نعيشه – تفيض، وفي أنفسنا ..أفلا تعلمون!

لمُاعبد الكريم

القصة

نملة الجبل

وإن أنتم أعرتموني أسماعكم يا سادة، وتوسَّمتم في ذي البيان إفادة، فاعلموا يا رعاكم: أنَّ خالقكم دحاكم، من جبلَّةِ طين، والطينُ مهين، ونَفْخِ الروح، والروحُ سفوح، تستنهضُ الهمم، وتأبى اللَّمم. والميزانُ العدل، بين الجدِّ والهزل: عقلٌ وعى، وصدرٌ حوى، فيحصل الوفاق، بين قلبٍ تاق، وعقلٍ واق.

واعلموا يا أحبَّة – لتجتنبوا المغبَّة– أنَّ طبائع البشر واحدة، تكسوها جسومٌ كاسدة، ومنها ما نستحضر، في ذي القصص ونستعبر.

فهلمُّوا معي، كما الألمعي، نسمع ونعي، علَّنا في ذاتنا نتحسس، ومن ربقِ ذنبٍ نتوجس.

وكلُّنا خطَّاء، وخيرُنا المشَّاء، في غورِ ذاته، وأصلِ صفاته، يصلحُ ويعمِّر، ومتى تمَّ له الأمر، التفت لمهمته وما أُردِف، التي لأجلها استُخلف، في إعمارٍ وإصلاح، والكون له صدَّاح.

قال كليلة: ويحٌ لهذه النفس التي تستحضر ذاتها في كلِّ محفل، تتبرقع بالأردية وتتسربل، تجرجرها وراءها، وتشمخ بخيرٍ أصابها على القوم، لا ترى منهم غير خيالاتٍ في حقول غناها، يذبُّون عنها ويقْعون، فإنَّها على حالتها... تلك كما نملةُ الوادي!

قال دمنة: وكيف ذلك؟!

قال كليلة: يُحكى يا دمنة أنَّ نملةً حدَّثتها نفسها، بصعود جبلٍ أشم، يقع على طرف وادي النمل. وزيَّنت لها هاته النفس رحلتها تلك: بأنَّ الجبل ما خُلق إلا لتعتليه هي، وتطَّلع من قمته على سفاسف النمل ترعى تحت قدميها، تشرئب بأعناقها وتحاول مدَّ البصر – ما استطاعت– لتطول منها خيالاً بعيداً، تستمدُّ بمرآه قوةً تدفعها لمزيد حرثٍ، فتقديم هبات على أعتاب الجبل.

قال دمنة: ولكنّ الطموح يا كليلة لا يعيب، ومتى ارتأى أحدهم في ذاته الإعتلاء ارتقاءً فليفعل، لا ينازعه إلا منافس، ولا يقدح فيه إلا مثبِّط.

قال كليلة: أحسنت القول يا دمنة، فالمرء إن لم تحثُّه نفخة الروح فيه، على مقارعةٍ وطلب العلا، لما استأهل إلا أن يكون ممن يدبُّون عليها: فيرعون ويهيمون، حتى يوافيهم الأجل، فهم كالأنعام، بل أضل!

ولكن طلب الرفعة يا دمنة، إن لم يستصحب معه صفاء النية، وجلاء السريرة، وينأى بالطالب عن مستنقع الذات الآسن، فلا خير فيها رفعة؛ ضرُّها أكبر من نفعها.

ونملتنا هذه، تعاظم شأنها في عين نفسِها، فاستجلبت عُدَّها، واستحضرت عتادها، وإلى جبلها شدَّت الهمَّة، ترنو إليه وتسمعه بأُذن العين يناديها: أطلتِ عليَّ يا نملة فهلمَّ : يكاد حصاي يتفتت شوقاً لدبيبك، وكذاك سحائب قمتي.

ونملتنا تجدُّ السير، وقرون استشعارها تهتزُّ طربًا، وقد أيقنت أنَّ الجبل جبلها، وما هي إلا دبَّاتٌ قليلات فتعتليه، وهو منها ذاتها التي جُبلت فيها؛ جبلًا يتصاغر أمامه المخاليق.

وفي أثناء رحلتها إلى ما حسبته مقدَّرًا لها ترى سباعًا تزأر: تتهادى بخطاها الواثقات، تهزُّ لبداتها باقتدار، فتعجب نملتنا بتلك المخايل، وتسأل: إلى أين يا سبع!!

فيتفكَّه السبع مجيباً: إلى الجبل يا نملة.

فتزقزق السعادة في خطى النملة: السبع على أعتاب جبلي يستبقني، ليستقبلني.. يا فرحتي!!

وهكذا طوال رحلة نملتنا، والطريق الطويل تحفل بسالكيها: من فيلةٍ عظيمة، وغزلان رشيقة، وأحصنةٍ سابقات، وذئابٍ وثعالب وأفراس نهر،وكلُّ ما هبَّ على أرضٍ ودب، كلٌّ يسعى فيها، ولا يكاد يراها.

حتى عَنان السماء ما خلت من صقورٍ وعقبانٍ وعنادل، وكلِّ طيرٍ بجناحيه يطير، أممٌ أمم، كلُّهم وجهتهم... الجبل!

تتخبَّطُ لسعادتها أقدامُ النملة، وهي ترى رعاياها، وأهل حفيفها وزفيفها يسبقون، يعدُّون لاستقبالهم، وفي ذلك يجهدون.

حتى تراءت لها سحالٍ وأفاعٍ ساعية، تمرُّ بساحتها فتسألها باسمة: إلى أين يا أحباب؟، وهي واثقةٌ من جواب، تبغي الأُنس برفاق السعي بطناً لظهر.

يجيبونها بفحيحٍ واحد: الجبل يا نملة.

فتقول مزهوَّة: أي عزيزاتي، إنَّما هو جبلي أنا، وإنَّه ليأتينني في يومي وليلتي يناديني ويرجوني أن أعتليه، أما ترون أنَّني أحقُّ الدابِّين فيه!!

انظرن إلى دقَّةِ أطرافي وفتوني، وقروني وعيوني؛ هباتُ ربي لي لأعتليه، فلا أُرهقه، ويعظم هو بي.

فتجيبها السَّاعيات– وقد اتسعت منهنَّ أحداقُ الإنبهارِ: القول ما قلت يا نملة، وإنَّه لجبلك، وأنت أحقُّ العالمين فيه، فمرينا تجدينا من الطائعات.

أومأت برأسها الصغير النملة، وعينُ الرِّضا منها ممتلئة: اصطففن ورائي، ولتنفخن على مواضع القدم منِّي، علِّي إلى جبلي أُسرع، فهو كما تعلمن ينتظرني منذ أن أُرسيَ به جبلا.

وكذاك فعلن، فجعلن ينفخن على مواطئها وينفخن، وهي واقفةٌ منتشية، بذي البطانة المخلصة، التي ساقها إليها استحقاقها، ولهفةُ الجبل عليها.

وهنَّ على حالتهنّ تلك، إذ بضفدعٍ يتقافز، الوحل عنه يتناثر، ونقيقه يصمُّ الآذان، فيلتفت موكب النملة منزعجا: إش إش يا ضفدع، أخفض صوت نقيقك، ولتغرب عنَّا، فنملتنا تستعد للقاء جبلها، ولابد أن تكون رائقة المزاج لهذا اللقاء وصافيته.

يقطِّب الضفدع ويقترب: نملةُ الجبل!! لم أفهم!

فتتضاحك الأفاعي، وتتلمَّزُ السحالي: أخبرنا أولًا: أين مسيرُك أنت؟

ينكفئُ الضفدع لتنابزهنَّ ويجيب: الجبل، أقصد الجبل، كما قصده قبلي خلقٌ كثير، وسيقصده بعدي الخلق، وقد نال منه كلُّهم على قدر سعيِّه، وما كتب الله من قبل له.

تسمع النملة ما قيل، فتلوي العنق الدقيق، وتصعِّر خدها: أنت أيها الضفدع الموحل تنتوي اعتلاء الجبل!! والله إنَّها لهزُلت!

أمَّا الأقوام الذين سبقوا، واللاحقون، كلُّهم يعلمون يقينًا: أنَّما الجبلُ جبلُ النملة، وإنَّها لآتيته، ولهذا المجيئ يستعدون، وعلى أعتاب جبلي هم راقدون، يصعدونني على ظهورهم وهم يتنادون: لنملتنا أحقُّ الخلق، لنملتنا أحقُّ الخلق.

فينبري الضفدع قائلًا – والوحل لازال على جثته–: أي نملة، والله ربي خلق فعدل، فوهب وأعطى، وأجزل هاهنا، وهاهنا حرم.

والمنحُ والمنعُ عدل، ولكلِّ نفسٍ وما يقوِّمها، يعلم ربي مواطن الإصلاح منها، ومواطن الإفساد، مشيئته فينا ماضية، واللبيبُ من رضيَ فرضَّاه، وجنَّد لرضاه الخلق.

كلٌّ يسعى فيها – وكلُّنا عبد– يتلمَّس مواطن الإحسان فيه ظاهرًا لباطن، وهو الملهم لذي الإحسان والمُسدِّد.

والخيرُ يا نملة يعمّ، والشر يطمّ، فلا تزكِّي، واعلمي أنَّ الخيرَ ممدودةٌ أسبابه، ولكلٍّ منَّا فيه نصيب؛ نغترف فلا ينتقص منه شيئا، يأتي مواردَه الشريفُ والوضيع، الغنيُّ والفقير، البائسُ والسعيد، فلا تقصري الأسباب على نفسك تسلمي، واستلهمي السِيَر، فمن كان عليها ثاويًا أو قائمًا لباطنها صار مآله.

وتزكيةُ النفس يا نملة تُذهب حظوظ الخير، وتجلب السخط، والله ربي أعلم بمن اتقى.

أفلا تنظرين إلى خطاكِ لم تتزحزح قيد أُنملةٍ عن موطئها وكأنَّها صخرٌ تصلَّد!!

ويزيد رَهَقك فحيحٌ يحثو التراب عليك – من أصفيائك– حتى كدت تحت أطنانه ترزحين، فلا تكادين تبينين!!

وهذا يا دمنة ما كان من حكاية نملة الجبل، افرأيتَها والأنا فيها، تُفرِدها للخير، وتأباه – حصرًا لها– على الغير!!

وجزاؤها – كما رأيت– الجزاء، أن تيبَّست همَّتُها عند موطئ القدم، وجعجعة الفم، فلم تُراوح مكانها، وقد عظَّمت من شأن ذاتها فاثَّاقلت بها، كمثل الأغلال تشدُّ إلى طين، والطينُ فيها يؤزُّها مخادعا، وهي في غيِّها سادرة، وزادها رهقًا صحبة السوء، التي زيَّنت لها، وصفَّقت وطبَّلت، فإذ بها تحثو التراب على طينيَّتِها، فيغدو الجزاء إركاسا.. من جنس العمل.

دمنة: ويالله العجب!!.

إياك وذى العتبة

إياك وذي العتبة (1):

وشرُّ النساء التي إذا غاضبت اربدّت، وإذا خاصمت اكفهرّت، خطوها عجول، مضاؤها جهول، كريحٍ صرصر، لا تبقي من سابق عهدٍ، وآنفِ ودٍّ ولا تذر، كأنّه ما كان تكفرُ بالإحسان، تعفرُ الأرزاق، تُطالبُ بالفراق إن ديس لها طرف، أو خالفها الإلف فعارض أو جادلها، في الحقِّ أو نازلها تنصبُ عرفَ الديكة وتنقُّ نقَّ السوَقة، تفرد الملاءة، وتنفث كالعظاءة، تقول: أيا ويحك، ما نعمتُ قطُّ بخيرك، وما أريتني إلا البَلا، من أول عرسي إلى البِلا، أمُّك حيزبون، وأبوك من يكون، تراها كعوسجٍ معوج، شوكه من داخلٍ وخرج، سليطة اللسان، ما هي بالعوان، بل دعوةُ مستضام، عليك بالسقام، أو هو امتحان، لصبرك أو برهان، لا يُصلحها الرفق، حلالٌ فيها الصَفق، ففز بعتق الرقبة، وإياك و ذي العتبة..!

إياك وذي العتبة (2):

وشرُّ النساء التي إن أعطت منَّت، وإن حبست تجنَّت، لئيمةٌ طباعها، مرذولةٌ خصالها قليلها جسيم، ومنحها ذميم، تمنُّ عليك الدهر، بما بذلتَ له المهر، تضنُّ بما هو حق، تُتبعه بالنَّق، وإن كان بالمستطاع، باعدته ألف ذراع، لتجد العنت، فلا تعودُ وإن سخت، إن سكبت لك المرق، قالت: كُل من جهدي وزُق، وإن مدَّت لك الفرش، تبرَّمت: عقبى للنَّعش، أولادك أفقدوني صوابي، جاريةٌ أنا!

يا عذابي، وهي ترفل في خيرك، تنهل من فيضك، على لسانها لولاي وأنا، لضعت وعاجلك الفنا لا تحمدُ ولا تشكر، وإن أعطت لا تصبر: هات ما عليك، ليست ورثة والديك فذاك شحُّها في نفسها، مجبولُها في غرسها، تشقُّ عصا الطاعة؛ فتزهد في البضاعة، ففز بعتق الرقبة وإياك و ذي العتبة..!

إياك وذي العتبة (3) :

ومن شرِّ النِّساء التي جمالُها فتّاك، توردُ الهلاك حبيبةُ المرايا، تصدرُ بالعطايا، انعكاسها تراه، تُعمَّى عن سواه، في كلِّ عينٍ نظرت، فشوغلت وانطلت عليها الحيل، وجمال الأيل، يشغلها البريق، عن معدنٍ حقيق فكل جميلٍ حسن، والقبيحُ أصل الأسن، مقاييسها معوّجة، أحكامُها مرتجَّة سريعةُ الغضب، إن جوهرَ بالعتب، وإن خولفت فكير، وشرٌّ مستطير، قرُّها قيظ، تميز من الغيظ، تأكلُ في نفسها، تكاد تردُ رمسَها فهي المتفردة، المؤيَّدة المسيَّدة، لا تُخطي ولا تُعاب، مرُّها مستطاب، فكأنها الصفيَّة، دوناً عن البقيَّة وسواها العوام، أو فلتقل هوام يعجبها الزفيف، ومَعَه الحفيف، وله تنتفش، وتعتلي الفرش، تطلُّ من علٍ توزِّع المِنن لها في الافتتان، بحسنها الفتّان، دليلُ المحبة، وإلا فالمغبة تشتغل بذاتها، تُفردُ في صفاتها أناها متعظمة، تفوق حتى الأنظمة، لا ترتضي المجادل، في حياضها، تُعاذل، وقولها العدل، لا يحتمل الهزل، تقول: أيا بعلي، ما أنت حقًّا بأهلٍ لي، وأنا نعمةُ النعم، عليك يا هرم، بل وإن هي أحبته، ما كان حبُّها له، بل حبها لحبه، لها وبذل عمره.

لا تعرف من اللغات، غير همزٍ وبعده الناءات. فإن ربك ابتلاك، بهذه الملاك، ففز بعتق الرقبة وإياك وذي العتبة...!

طرائق قددا...

(1)

إنّها امرأة أنانية، باللغة القسوة، فاسدة، ومدللة، ولأنك تحبها سترى كل هذي العيوب كأنها وحوش ضارية تنهشك، بينما أنا، ومن زاويتي هذه: أراها عيوبا عادية، أخطاء يمكن التغاضي عنها.. بل وأشفق على امرأة مثلها تتوق حد اليأس إلى المساعدة، ولكنها لا تصرح بذلك أبدا.. !

(2)

عندما تكونان معا فإنكما تقطِّعان بعضيكما إربا، وعندما تبتعدان فإنكما تقطِّعان نفسيكما إربا..!

(3)

كان بإمكان حمامة بلهاء التقاط نكاتها بكل سهولة، ثم تقهقه لها– تلك العجماء – حتى تشرق بضحكاتها.. روحها كانت من الخفة بمكان، حتى لترغمك على مجاراتها وإن كنتَ سيد الكآبة، لكنه لم يفعل! ما كان عقله ولا إدراكه يسمحان له بمتابعتها، ولا عبور كل تلك الجسور التي تبرع في بنائها: ذلك التواصل المبني على ذبذبات خفية ما، لم يكن متاحا، لكنه – من جهة أخرى– كان يجيد فنون الحماية إلى أقصى حد، كان حقا من النوع الذي لا يأبه أبدا بمقايضة أمنه وسلامته، وروحه حتى، مقابل راحتها فحسب... وهذا كان أكثر من كافٍ...حقا.

(4)

– أخبريني فقط، أهو أنا ما تحتاجينه حقا! أنا أنا ! أم هو حبي؟! إن كان حبي، فعليك أن تعرفي أنك تملكينه ..هذا مفروغ منه.

– إنه أنت ..أنت فقط

– لماذا؟! حبا في الله لماذا؟!

– أعتقد... لأنك تملك ما لا أملكه أنا، ما لست عليه أنا: أنت أمين، مخلص وصادق، ويمكن الاعتماد عليك.

– نعم نعم، كل الفضائل التي لم أعد أملكها، كل الأسباب التي كنت تحبينني لأجلها، والتي كنت أكثر من سعيد للتخلص منها، لذا ترين، أنا لم أعد أفي باحتياجاتك، وأعرف أنك لم تعودي تفين باحتياجاتي كذلك.

– آه... أنا لن أزعجك بعد الآن.

– تعلمين.. لن يكون لنا أمل معا.

– أوه، أكان لنا أمل في فراقنا !

(5)

تتبّع الشغف، ترويض التحديات، استكشاف المجهول، وتعبئة الرصيد: لهاثٌ في لهاث، وكلها أسباب تقود للدنيوي الزائل: لذة تنقضي بأزل، طال أو قصر، وسائل نمضي معها وبها مهلة الحياة، ريثما تقبض الروح، كأننا نأمل أن نعيش الملهاة وفق شروطنا الخاصة، لنجد أننا في حقيقة الأمر ليس أكثر من كريات على منضدة؛ تدّقها العصي لتسيرها في مسارات أبعد ما تكون عن العشوائية: محفوظة، مدركة، مكرورة، ولكنها أبدا ليست السوداء منها.. السوداء وحدها تستعصم حتى الضربة المفلحة والوحيدة في صميمها، مرة .. وإلى الأبد.

(6)

كانت له تلك الطريقة العجيبة في نطق اسمها، تلك الطريقة الفريدة التي اختص بها وحده؛ يطعِّمه بدفء كفِّه متمهّلا، يحنو عليه بعين روحه، وباقتدار يمنة ويسرة يميله، ليترقرق له، كأنه يشقشق، ثم ما يكون منه إلا أن يتلمظ مع كل حرف منه استحسانا، قبل أن يدور به على مراكز الحس منه، واحدة واحدة، وعلى مهل! وكانت حرفة التذوق عنده تطربها، أرأيتم من قبل من ينطق اسما فكأنما هو يشمه، قبل أن يهبه نفحة التمطي بكامل الثقل على مخارج الحرف منه! طويلا، ممتدا، كأنه يعرج إلى السماء. حتى صارت هي تحب اسمها، لم يعد ذلك الاسم المألوف الذي سئمته وملته واختنقت به.

الذي أرهقها كيف تشرح معناه، وتعدّل نطقه لكل وافد، بينما جاءها هو جاهزا : يدرك معناه كأنه خلقه، وينطقه كأنه نفخ فيه من روحه، لذا صار اسمها الصغير يعني لها أشياء وأشياء، ما أفلحت يوما في تعدادها، ولا أربكت نفسها في محاولة إدراك كنهها، فقط سمحت لكل براعم القلب منها أن تتعبد على أعتاب تراتيله. وكانت تستكشف نواياه، ومقاصده، وحالته النفسية بمجرد نطقه له: هاهو ينطقه بتلك الطريقة الكسول والمتمهلة، يشبه هرًّا يتمطى مقرقرًا أمام المدفأة في كانون: إذن هو راضٍ ومرتاح، هو الآن ينطقه على عجل كأن قطارا على وشك أن يدهمه: هو منتمٍ ومعتاد، هو الآن يعطي كل حرف منه سلما موسيقيا خاصا، يمهره ببصمته الخاصة، ويهبه من أصل رائحته نفحة علوية: هو الآن عاشق! إيه، يا لاسمها كيف صار بوابتها إليه، وكيفية نطقه له مفتاحها ! لتجد أنها صارت تقع في حب اسمها في كل مرة يضحك فيها على فمه، كأنها مرتها الأولى معه، وإن صرخ به متنمرا. لكنه الآن، الآن صار يقفز عنه، يتجاهله، ويتحاشاه، كأن حروفه القليلة أمست تحمل شبهة العدوى، ونوتات البورانا، وكل أزمات النفور، ليصير اسمها غريبا، يتيما، ومنبوذا، صار مهجورا تعسا، مكتفيا بأن يقبع في ركن ما من جواز سفرها، بعد أن كان كل حرف منه يختصر السديم. أما وقد هجره لسانه، ونبذه صوته القادم توا من تحت العرش... فقد عرفت أن روحها قبضت، وانتهى الأمر.

(7)

كان من هؤلاء الذين يملكون ذلك النوع من العقول: عالية التنضيد، محكمة التوضيب، محددة المسارات، وبالغة الرتابة! ذكاء مسبق الإعداد، وصرامة تكاد تكون محببة، ورأس محشو بالأرقام العقيمة التي لا نبض فيها أبدا. وكان لا يجد أدنى صعوبة في التخطيط لحياتهما معا إلى العشر سنوات المقبلة: بكامل التكاليف والهيئات، محددا كل مسار من الممكن أن يتخذاه، أو يتجاهلاه، أو حتى يخطر على باليهما، مستبعدا كل نسبة خطأ ممكنة، بذلك التصميم العجيب، الذي يصنع منه كائنا متحفزا؛ على أهبة الاستعاضة، متمتعا بكامل اللياقة التي تكفل له صياغة البدائل.. المحكمة!

وكانت هي تملك ذلك النوع من الذكاء الذي يملأ كل فراغاته، ويقيل كل عثراته التي لا يقرّ بها أبدا، ليصير للأرقام معها حسّ، وروح، ونبض، وتصير للخطط في مخيلتها جنوح واحتمالات، فتأوّل الخطأ دوما ليمسي مطبا اضطراريا، يصيب الرأس بكدمة، والفم بضحكات، وتصير الخيبات ليست أكثر من محفزات حياة، تعيد تدوير ما يبس أو احترق، حتى البدائل صاغتها على طريقتها المنمقة، لتصير في عينه أكثر من ملائمة، ينم اختيارها أو إيجادها عن شاهق ليونته، بينما لم تكن في الأصل إلا وجها من وجوه المعتاد، والمألوف والمتاح..! كان الأمر ببساطة أنه بينما كان هو يبني القلاع الشاهقة، كانت هي تهتم بتعبئة الفراغات، وكل ما يصنع الفارق، وآثار الفراشات. لقد كانت تعنى بالتفاصيل والمنمنمات، يا لله كم كانت تعنى بالتفاصيل... والمنمنمات!

(8)

اقترابه وحده منها كان كافيا ليملأها بذلك المزيج الطاغي والمربك من الكآبة، والقلق، والحسرة، والفزع! على حافة نصل مسنون معه كانت تحيا: ببالغ التحفز والوجع، وكانت تتقدّم...خطوة إلى الأمام نحوه، وسدًّا يستطيل إلى الأعلى بينهما! ورغم أنّ كل السدود الآمنة التي اصطنعتها برهنت على وهنها أمام هكذا اجتياح، إلا أنها لم تكف أبدا عن مواصلة البناء، هوس البناء المضاعف، لتصد كل هجمة استباقية، تعرف أنها لابد مهيلة كل ما أعلت بنيانه. ربما سيطر عليها رهاب الأماكن الشاهقة، لكنها تجاهلت كل ذلك القلق الممض، وكل تلك الغصص المعربدة في الحلق، لتقترب، وتقترب...جانب خفي فيها فقط كان يطلعها على مصيرها المحتوم: الاحتراق حتى ذرة الرماد الأخيرة كان مصيرها، وكانت تعلم ذلك جيدا، كانت تعرف أنّ العنقاء ليست سوى كائن أسطوري آخر، ينضم بجدارة إلى كل تلك القوائم الممتدة من كائنات الأساطير، وأولها هو...

(9)

- ولكنك لم تجرب هذا من قبل .
- أوه نعم، تماما كما لم أجرب إطلاق النار على رأسي...من قبل!

(10)

حسنا، كانت كئيبة بطبعها، ذلك الهاجس الملح الذي يجعلها تحيل كل بسيط إلى أزمة كبرى: تحتاج إلى إعمال ذهن، والكثير من التركيز، كان أكثر من متلبّس بها، ولكن.. معه لم تجد فرصة واحدة تلتقط فيها أنفاسها، أو تغلق فمها حتى. مادام هو بالجوار.. فهي في حالة سعادة دائمة؛ ضحكاتها لا تنقطع، تعبّ ما تمنحه الحياة لها كآخر شهيق: بجوعٍ، ولهفة، وإحكام، كأنها جرعة الهواء الأخيرة في المجرة! مجنونة، كان يخبرها ، مباشرة قبل تسديدته التالية في مرمى سعادتها. ذلك البريق، ألم يكن أكثر من كافٍ لينبئ الجميع بأنها حيّةٌ..جدا !

(11)

ملولٌ، لامبالٍ، صموتٌ، وكئيب؛ هذا بالضبط ما سيؤول إليه في علاقة زوجية طويلة الأمد، أخبرها، حذّرها في الواقع، لذا: وجدت نفسها مرغمة على التكيف على كل تلك الخواص المتكهنة للرجل الذي اختارته لتكمل معه شوط الحياة! ترى.. هي كانت مضطرة لتقبل مفهومه العجيب، والذي أنكرته بكل قوتها من جهة، هناك .. في لاوعيها، حيث لا يسمح له بالدخول، وحيث ما فتئت ترفع لوائح نقاط النظام، بينما لا يشهد برلمانها المصغر، غير فتاتها المحتجز في رأسها الصغير والجميل، كما اعتاد أن يصفه...! ولكنها من جهة أخرى، سلّمت لكل ترّهاته التي تنافي أبسط مظنّات الفأل، فقط لأنها تعلم بأن ذلك الاستسلام بالذات كان وحده المعجزة التي تسمح له بالرضوخ أخيرا لألف باء الحياة على أية حال! وفازت به، تظنّ، ثم صار طابع عدم الاهتمام عنده ملازما، لا ينفك عنه، كأنه صفته الجينية التي ولد بها: هو موجود فقط، لائحة ترفعها عاليا باسمه، تخبر الجميع أنه: مرحى أيتها الآنسات، قد تم حجز هذه النسخة هنا ..! لم يخبرها أحدهم من قبل، أن هذه النوعية من الحياة بالذات، هي شكل آخر من أشكال الموت الشتى، و قد تم إثبات جدارته جدا، في كل ثانية تقضيها إلى جانب رجل اكتفى بكونه رقما وطنيا مسجلا، في خانة تكفل احتراما ومكانة اجتماعية ما من بطاقتها..! ثم صارت تتساءل، في سرية بالغة، بينها وبين التعيسة في رأسها الصغير والجميل: أهذا حقا ما كانت تريده لفرصة الحياة الواحدة تلك؟! أيشفع له كل ذلك الزخم الذي يفيض به قلبها لواحدها! ثم... متى وجدت تلك الطباع الجديدة طريقها إليها ؟! العصبية المفرطة، التحفز التام، والاشتعال الذي لا ينتظر الشرارة ليبدأ ، لقد تحولت بجدية تامة إلى كائن متقلب المزاج، لا يطاق...وهذا بالضبط ما حذرها منه لمّا اتفقا على إتمام تلك المهزلة. ..!

(12)

ألم يكن بالنضج الكافي ليفهم أن الشغف الأول، وجنون البدايات، ليسا إلا توطئة لبناء ذلك الجسر بالغ المتانة: حصاة بحصاة؟! ألم ينبئه ذكاؤه أن الشرارت تقود إلى الحريق، والحريق مآله أن يهدأ ليصير نارا حنونا، برتقالية بهية، تشيع الدفء والأمن والسكينة في أوصاله المتكلسة، لكنه أبدا لن يشتم رائحة الشياط! ألم يكن التراب أبدا، حلا ناجعا لكل الحرائق المقيمة والجائعة ..أبدا ! حفنة رضيّة سخيّة، تنهي كل إرادة للتمدد، والاستحواذ، وتختصر كل تلك المسافات المتربصة، والحصون التي تنتظر..! الحرائق التي تصرخ وتزمجر تنهبنا، تقتات على أعصابنا ويقيننا بعدل السماء، حرائق تجفل لها كل ذات روح، إلا نحن..نؤثر الإقتراب لنستطلع، لنذوق، لنحترق..! لا يعيب النار إلا مكتوٍ بها، ولا يزكّيها إلا من أذهبت خبثه، وجلّت للناظرين سبائكه....! بين المطهّر والجحيم.. هات البينة.! ثم إن هنالك أحاسيس لا ننتهكها أبدا بتكرارها، وإلا صارت مفرغة من قيمتها وجلال مسماها، كالحب الأول مثلا: عاصف صاخب، يسم الجلد، ويصهر العظم، لكننا نعلم أننا لن ننالله غالبا، سيتراجع في الذاكرة مكانا قصيا، لن يراوحه، لكنه في الأغلب لن يكتمل، كأن كل ذلك السحر أكبر من أن يتحقق، كأن الحياة تطلعك على أحد أسرارها: اكتف بما أتيح لك، ولا تنتهك الحجب، فبعض ما وراء الحجب أدعى للهجر، وبعضها أدعى للفرار! كذلك شغف البدايات، إن بحثنا وتقصينا واستبدلنا وتسورنا، ما الممكن أن يملأ ذلك القلب بعد أو أن يبهره؟! أي وطن نتوقع ان يسكننا ونسكنه بعد كل ذلك النزيف؟! في كل مرة نبذل فيه ماء الوجه: نعطي، نقرأ، ونحلل، نهب الآخر قبسا منا، نمد يدنا إلى قعر القلب نلتمس جذوة، لنهبها بكل التوقع الملح والمفزع، بكل ذلك الرجاء الصاخب في العيون، بأن تحتضن الجذوة لتنبت حريقا..! في كل مرة، جذوة تلو الأخرى يا صاح، فلا يتبقى بعد إلا الصقيع..! يا للبؤس! كيف صرنا نزدرد كل تلك المعاني الحلوة، نعطل حواسا، ونوقظ أخرى، نعمل إرادتنا الحرة، حين كان علينا أن نخرسها، ونكممها وهي تستجدي إعمالها، ما الذي صرنا إليه يا عزيزي؟! ما الذي صرنا إليه؟!! نحن لا ننزف الزيف صدقني.. نحن ننزف قدرتنا – رغبتنا– على قراءة البوصلة.

(13)

كأيّ فراشةٍ وقعت في يد طفلٍ نزقٍ خبيث... سجنها، في قارورة زجاجية، مصقولة شفيفة، لتسمح بالقدر الأعلى من التلوّع = ترى الألوان كلها بعينها المدربة على الكلال، ثم لا تمسّها، لا تستنشق كل تلك الأطروحات من خطط السعادة المحكمة والجديّة خارج القارورة، يقول: دعسوقتي الجميلة لن تحتمل كل هبات النسيم تلك، أجنحتها لن تحتمل ثقل الهواء في الخارج الصاخب والمريع... بينما كانت أجنحتها ترتجف بقنوط = زفرت آخر قبس محتمل، طوت جناحيها بعناية فائقة، وانطفأت.

(14)

كانت تحبه، هذا أمرٌ مفروغ منه، تحبه ذلك النوع من الحب الذي يبدأ عمرك معه، ويستجد تقويم أيامك تبعا لسريانه فيك، الحب الذي تعرف أنه سيدوم، توقن بأنه سيدوم، كما يعرف ويوقن هو أنه سيدوم... لقد كانت تحبه. لكنه اليوم، لكنها اليوم... تعرف! صارت تحبه بطريقة أخرى، شيء ما جعلها تدرك أنها تحبه اليوم بلون جديد، اليوم تراه هي بعين جديدة، أم أن روحها هي التي اختلفت! كسا وجهها ذلك الانشراح، كأن جناح ملك كريم داعب محياها لتوه، وصارت تفكر: كيف لمن في مثل عمرها، أن تملك رفاهية قولبة الأشياء من جديد! في عمرها الذي عليها فيه أن تفقد الدهشات، وتنعم بسلام شمول المعرفة... هي التي قضت عمرها تبتعد وتقترب، توازن وتقيس، تبني وتعلي، حتى ظنت أنها حازت القالب الذي يسع روحها الممتدة: من جسدها الذي غزلت كل ركن فيه بالثقة، إلى واقع أن لا حيز يسع ذلك الجسد. هي تؤمن الآن بأن ذلك القالب الذي جدّت عليه، ونمّقته ليسعها يوم ترفع يديها عاليا، وتسلمه متعة التسيير، صار لذلك القالب نكهة جديدة، هكذا، وفجأة، صار له اسم جديد، اسمٌ... كالوطن مثلا. لقد أسلمها حقا ليقين جديد، يخرجها من ضيق الحب، إلى سعة الوطن، الوطن الذي هو الملاذ الرحيم، التواد العطوف... و الرائحة التي تتوه فلا تدري جسد أي منهما تسكن.. في هذه اللحظة بالذات، هي تعرف: هذا الإيمان الذي بدأ يتغلغل فيها، صار يلون كل ما هي عليه ويصبغه بلونه، لذا ... صارت تحبه بنكهة جديدة، بنكهة الإيمان.. بأنه الوطن!

(15)

حقا؟! أكان عليّ حقا أن أستسلم لكل نزعات أمومتك، وإفراطك في تدليلي، وجهوزيتك التامة لتلبية أكثر احتياجاتي بساطة وتلقائية، وشغفك في الإطباق على أنفاسي، والتصاقك الدائم بي، كالهرة، كالعث، ككل ما لا تفكّ منه إلا وأنفاسك مزهقة!! هل بهذا كله تدللين على حبك لي! حقا ؟! أف... انظري إلى أين أوصلتني!!

طيب طيب، دعيني أخبرك: أنا أحبك وأنت في الزاوية البعيدة، تولين أظافرك كل اهتمامك، وأنت تتأملينها، كأن على أطرافها منقوشة معادلة الحمض الأميني، أو اصطف عليها جيش الفوهرر، وأحبك بذات القدر، وأنت تعنين بشأنك الخاص، تاركة لي كل مساحاتي، لأقرر شأني أنا الآخر، أنا أحبك عندما أكون أنا الآخر، وأحبك أكثر عندما بكل عفوية الكون، تدركين متى عليك الابتعاد، وإخلاء كل الطرقات المؤدية لانفرادي بدائرتي، هل عليّ أن أطلب منك حقا أن تدعيني أدرك كنه آدميتي.. بعيدا عنك، ولو قليلا!

انت لست أمي، هل عليّ أن أثبت ذلك! أنا لست في طور التحول إلى أوديب لو كنت مصرة، ولا، لست أعاني من عقدة نقص، ولم أعش طفولة مشردة قاسية، أطارد فيها الذئاب، أو تطاردني..ليس مهما، ولست زحل، لا.. في الحقيقة لم أكن زحل من قبل، لأسعد بدورانك حولي هكذا..ثم صدقا، لو تعلمين كم تدفعني كل محاولاتك لابتزاز عاطفتي بطريقتك المفرطة في العطاء تلك إلى النفور، كل ذوبانك هذا.. لماذا؟! أنا لست قهوتك كما ترين، فلم كل هذا الذوبان؟! أشفقي على ذاتك وملامحك، وحدودك، وكل أبجديات اختلافك... أرجوك. ثم لماذا تجدين أن عليك إثبات عاطفتك نحوي؟! لمَ كل هذا التوحش في الإصرار على إثباتها؟! لم لا تأخذين الأمر ببساطة: نحن نتشارك عاطفة، عاطفة..وليس جسدا، ولا ذاتا، ولا كينونة، أنت تجتاحينني وتقوّضين الإنسان فيّ بإسرافك، والتصاقك، وتبذّلك....ابخلي يا امرأة، ابخلي، تعلمي البخل، وتباعدي، كوني نفسك ..حاولي أن تكوني نفسك، ولا تستمدي إحساسك بأنوثتك، فقط لأنني في حياتك... لأنك حزتني، أنا لست ملكية منقولة، وما من صك يثبت ذلك.. أبدا

أف... أنت أنثى مكتملة يا عزيزتي، فلم لا تستغلين ذلك بحق الله!

ثم أنا أريد دوائري، ابتعدي عن دوائري بحق الله يا امرأة!

(16)

- لم هو بالذات؟!
- لأنه ..عطوفٌ جدا
- وهل باقي الرجال قساة؟!
- لا أدري، ولكنه...عرفني في أفضل حالاتي
- يا له من سبب بائس.
- كحالي، ما العجيب هنا !
- العجيب أننا نتشبث بمن عرفنا في أسوأ حالاتنا، فآثر أن يبقى، يوم دعته كل الأسباب أن يغادر.
- ولكن الذي عرفنا في اسوأ حالاتنا عرف ما صرنا إليه، ما جُعلناه، بعد أن لاكتنا التجربة، وأزهقت فينا حلاوة الفجأة الأولى، أنا لم أرد يوما إلا الذي عرفني أنا الحقيقية، التي لم تسمها النار، فإن كان لابد من الحريق، فليكن الأول.
- وماذا عمّن نفخ في رمادك ! أليست معجزة البعث أولى بالعرفان، من كل فنون الموت التي تتوقين إليها ؟!
- لا أدري حقا، فقط الذي عرفنا في أحسن الحالات، عرف بكارة الروح فينا، لمّا كنّا صفحة بيضاء: لا نحفل إلا بمفاهيم علوية، ونؤمن بالمطلق، لمّا كنّا مسوّرين جدا، لأننا لا نَعرف.
- وما الذي قادتنا إليه المعرفة؟!
- أن صرنا في أسوأ حال...
- كيف؟! المعرفة جعلتنا في أسوا حال؟!
- احترقنا بها.. كوتنا برهاب الاقتراب، وصيّرتنا رمادا
- والذي بعثنا من مرقدنا ؟!
- حسنا، وما الذي تهمه كل الحرائق وانطفاءاتها... بعد أول حريق؟!

(17)

– كم من الوقت تظنّ بأنني سأستمر في دعمك؟!!

– أوه، مادمت بدأت في احتساب الوقت من الآن..فالأفضل ألا نستمر!

(18)

هل كان عليه حقا أن يستمر في المحاولة؟! مثله من وضع كل ثقله في طرف واحد من القارب: وضّب كل تلك الجعاب، كدّسها، وتأكد من إحكام غلقها، واتساق ترتيبها، ثم وبكل بؤسٍ محتمل، احتضنها= آماله، وتوقعاته، إخفاقته، وكل الإستجداءات التي اقتاتت على ماء الوجه.. بينما على الطرف الآخر تمدّد الوهم بكل تجلياته: فارغا، متخليا، مستغنيا.. وأبعد ما يكون عن الرفيق... العجيب أنه هو، مازال يجد في ضميره متسعا ليبرر غرق قاربه! أنا لست لك، يقول الوهم على الطرف الآخر من القارب، أنا لا أُدفئ إنكساراتك، ولا أجدّ لجذب كل تلك الحبال التي تلقيها على بابي، يستطرد الوهم: الجليد هو حالتي المثلى، فاقنع بها إن شئت! وصاحبنا لا يملك إلا أن يزيد في تكديس بضاعته؛ مسلوب الإرادة، هملا.. إيه، ما بيدنا غير أن نراقب شكلا آخر من أشكال الموت، فلربما كان عليه أن يدرك بأن الحياة تكون بالغة الكرم معك، يوم تصفعك بكامل قوتها، وعلى كلتا وجنتيك، فقط لتقنعك، بأن تعطيها ظهرك، وتكف عن فعل شائن جدا، كالأمل!

(19)

أحقا تريدُ أن أبتعدَ عنكَ ؟ حقاً؟ فكم أبتعد؟ خطوةً؟ خطوتين؟ عشراً؟ هل تريدُني أن أبتعدَ بما يكفي لتبتعدَ عن عيني أم لتبعدَني عن قلبِك؟ كم من الوقت تريدُ؟ ساعةً من نهارٍ؟ ام كم بالضبط؟ ماالذي ستفعلُه في ذلك الوقت الذي ستبتعدُ فيه عنِّي؟(لعلكَ تدركُ أنَّك انتَ من سيبتعدُ وليسَ أنا ! فهذا ليس خياراً بالنسبة لي!). مع من ستكون؟ هل من ستكونُ معهم أحب الى قلبِك مني؟ أتريدُ الجلوسَ في صندوقِ ال(ولاشي)؟ الا يمكنُنا أن نجلسَ فيه معاً؟ لن أنبسَّ ببنتِ شفة ...صدقْني سأكونُ طيعةً أنيسةً صامتةً، كهرة أمامَ موقدٍ في شتاءٍ قارسٍ، لن تسمعَ منها الا هريرَ الرضا بقربها من الدفء! أقسمُ لك أنني لن أسألَك عن زميلاتِ العملِ ، وماذا قُلْنَ لك عن رباطِ عنقِكِ الجديدِ ، ولن اعترضَ على العطرِ الثمينِ الذي ترشُّه على منديلِك كلَّ صباحٍ (بالمناسبة: أنت تُفرطُ في هذا كثيراً ، أو ليس المبذرين إخوانَ الشياطين؟ شيئاً من رحمةٍ يارب!)

سأجلسُ هادئةً كتلميذٍ شاطرٍ في حضرةِ استاذِه ، بل كمريدٍ في حضرةِ شيخِه ، ليتك تعلم أنني أعيش لتلك اللحظات لاغير ، لامتعةَ لي الا أن أدورَ في مدارِكَ وحدَكَ طوالَ الوقت . هل تريدُ شيئاً من حرية؟ هل خنقَك اهتمامي بك؟ طاعتي لك؟ رغبتي ولهفتي لرضاك؟ لعلَّ هذا لأن قلبك ملونٌ وأنا بقلبٍ لم يعرفْ الا لونَكَ أنت . لقد كنْتَ زارعَ القلبِ ، وقاطف ودادِه .... ألست تعلمُ أن للمحبةِ ظواهرَ شتى ، وللشريكةِ أشكالا عدَّة: منهنَّ من تتهالكُ في حبِّ واحدِها فتلكَ البكرُ القلبِ الندية الروحِ التي لم يلمسُ قلبَها لامسٌ... أحنُّهنَّ على ولدٍ وأوفاهُنَّ لزوجٍ وإن أنكرَ أو استنكر... مخموماتُ الفؤادِ عفيفاتُ الودادِ إن جالسَها واحدُها – بحقِ كلمةِ اللهِ_ كانت له ودوداً ولوداً عؤوداً عليه حتى وإن غضب! ...وإن فارقَها كانتِ الوفيةَ الصفيةَ التقيةَ فلا تخونُه في غيبٍ ولاتفارقُه حتى وإن فارقْ ... إنْ كمدَ كمدَتْ وإن تبسمَ تهلَّلَتْ أساريرُ القلبِ قبلَ الوجهِ ... عضدٌ لهُ حينَ لاعضُدْ وجيشٌ بأكملِه يهتف: نخوض البحرَ معك، فأنت الأمةُ وإن كنْتَ وحدَك ...

تقولُ لهُ حينَ فاقةٍ: نحنُ بأتمِّ خيرٍ مادمْتَ بخير... وحين ميسرة: ذاك مالُكَ ماأفضْتَ علينا فهو لكَ أجرٌ وخيرُ الدراهمِ تلكَ ماطابَتْ بهِ نفسُكَ... تلك التي لم يطرقُ قلبَها الا واحدَها وإن جفا... اما من طرقَ قلبَها الحبُّ مراتٍ عدة فتلكَ قلبُها كجناحِ فراشةٍ يفقدُ القدرة على الطيران بكثرةِ اللمسِ. فأنا تلك المخمومةُ الفؤادِ لك، الغنيَّة عن العالمين بك، جيشُكَ حين حاجة، وقلبٌ مُوَطَّأٌ لك وحدَك، أما علمْتَ أنك لي كلُّ الحياة؟

أنا أعلم أنني لست إلا جزءا من عالمك، لكنك حبا بالله يارجل!!
أكرِمْ نزلي ...أكرمني أنا!
ولتدرك! أنك عالمي كله!
وأن كل دوائري .. هي أنت .

#أمي_دجلة

بينه وبينها

بينه وبينها (1) :

يُولَدُ الرجلُ منكم هائماً يتلفَّت، تتقاذفُه الأهواءُ أنّى شاءَ لها.. وشاءت، يستغرقُه أسفٌ في ذاته يتآكلُه على ما فقد، غير مدركٍ لما فوَّت، فيُكدِّرُ عليه ما توهَّمه من مظنَّةِ الصفاء، وتُلبسُ عليه حريّته أسيراً لنقصٍ وإن حازَ كمالَه الأرضيِّ كلِّه.

فإذا ما صادفَ امرأةَ قلبِه، فأيقنَها منه، وعرَّفها له = كانت له كأولِ شهقةِ ميلادٍ يعبُّها بعدَ ظُلمتِه، فهو في حالته تلك، كمن وُلِد مرَّته الثانيةَ معها، ومن نفس وعائها الذي حواها، حتى ليرى وجهه في مقلةِ أُمِّها أُمِّه، وتوافقُ نبرتُه صوتَ أبيها أبيه، فصاروا له أهلاً معَ أهل، وكانت هي منه أصلَ ذاتِه، وكان له بها ...رِضاءه، وتمامَه.

بينه وبينها (2):

وأمّا نحن معشرَ النِّساء؛ فإنَّكَ لتجدُ إحدانا وقد اشتدَّ منها العود واشرأبَّت عليه مخايلُ زهرِ أنوثتها وازّيَّنت = أُترِعت فطابت في عينِ نفسها.. وأترعَت، فهي في حالتها تلك من معارجِ كمالها وبهاء عمرانها؛ كقصرٍ مشيدٍ من لبناتٍ منضودة، أثاثُه مسالكُ الأخيلة، هَرِمٍ على عروشه تحناناً لدبيبِ ساكنه الأوحد في أرجائه: مبعثراً ما انتظم، أو منظّماً كما شاء له الهوى أن يُنظِّم.

أو كغرسٍ تطاولَ ينعاً وإيرافاً...، ناءَ مثقلاً بحمله من أطايبِ ثُمُر، وماله من قاطفٍ يمدُّ يدَ الخلاص من عناءِ ما حملت.. واحتملت.

فهي في مسادر سلطانِها، ومبتعَثِ سطوتها؛ تجدُ ذا الخواء الموحِش في دغل روحها، كالتي فُقِدَ منها وليدُ قلبِها وما ولدت، أو كالتي أعدَّت لسفرها عدَّته، وهيَّأت له، فمتى ما حان، تسمَّرت في أرضِها، مشدوهةً لا تلوي وما من دليل، ولا حتى .. سبيلِ سفر.

صافرتها تزعق وهي تمخرُ عباباً، فلا هلب يشدُّها لموطن رِضائها فتقِر، ولا مواقعَ نجوم تهديها رشَدَ سُبُلٍ فتسعى؛ فإذا ما قدَّرَ لها الإله، وأتمَّ لها وبها واحدَها، وكان لها الساكنَ المعمِّر، ونجمَ شمالِ قحلِ سمائها المتفرِّد؛ ألفَت حظَّها في دنياها، وقبسَ فردوسِها الأعلى.

بينه وبينها (3):

فإذا ما وجدته واستيقنتُه منكِ عينُ روحك = علمتِ حالَه معكِ بعدَ تصرُّمِ الزمان وعَدوِ العقود: ألفةٌ تسبق ما سيكون، تتثالُ بينكما ابتداءً وهو واحدُك، ووعدُ ودادٍ لا يراوحُ حتى يُتمَّ مرادَ الإله!

بينه وبينها (4):

وليس هنالك كامرأةٍ تُسلمُ رجلَها القيادَ أبدا: يُسيِّرُها بحنوِّ رجولته ورضاؤها الحادي، وتفيءُ إلى وارف عزمته، وسكينتُها أخذُه بيدها، فإذا ما التجأت إلى مرافئه وادعة، واستهدت بفناره فاحتواها.. أسلمها زمامَه واتخذَ منها وطنا..!

بينه وبينها (5):

ومتى استويت على سوقك جعلت تقلِّبين طرفَ الفؤادِ تجتلين أسرارَ الوصال، وتسبُكين شذراته بالتعلُّلِ والرجاء، ليبرقَ في خاطرك على أتمِّ ما يكون، ويستوي لك كما يطيبُ الاستواء. وسليمانك – لو تعلمين– تُساقين أنت إليه: تتهادين على ممرَّدِ التقادير، فإذا عرَّفه الإله لك، وعلمه الفؤادُ منك = صهرتِ ما كان من سالف سبائك، وأسلمته حرفة الصياغة، وجعلت– راضيةً– ترقبين..!

بينه وبينها (6):

فإذا ما اعتليتِ خفيَّ سُلَّمه، وخطوت على دروبه تستكشفين مسالكَه: تدقِّين بحكيم خطوك على كوامنه، وتنسابين في أروقةِ حصونه، لا تُعجزك مجاهلٌ ومجاهيل، ولا تُقعدك شبهةُ النشاز، فكنت أنت سماحَه الذي قُسم له = خصَّك بحجازيِّه والبيات، يُفردك وأنت القَرار، فتهيمين في أودية صفائه ونواصيْ إلهامه قريرةً هانئة؛ مرادُ الإله فيكما مقاماتٌ وتواشيح، ومن خلاكما يمضي ولا يلتفت لعوالمَ فيكما تُصاغ، ما صافحت مسامعهم، والصخب فيكما تضجُّ له الآفاق...!

بينه وبينها (7):

أما رأيتِه وقد تجلَّت قوامته فيه وحُقَّت له فكان رجلا: عدا على غائلات أيامك فأحالها سعودا، وسطا على مرير شجونك فأحالها برداً وسلاما، واعترك مع ما يضيرك فأحاله أثراً بعد عين، ثم قعد يترصَّد لحادثات الزمان فيتصدَّى ويُحصِّن، فإذا ما تمَّ لكِ أمانك به: أولاكِ كلَّه، فأنصت لماتع فتونك، وأرهف حسَّه لرغائبك، وسوَّدكِ وهو سيِّدُك، تعلمينها فتزهين به سيِّدا، وهو في ذلك كلِّه رهينُ رضاك، يرتقب هناك، فتزهو فيه رجولته.. ثم يرضى!

بينه وبينها (8):

هو ما رآها يوماً أجمل النساء، وما فتنه منها لحظٌ ولا استرقته مكاحل، ولا تنزَّهت أفعالها في عينه، ولا اكتملت لها محامد، ولكنَّها وقعت في قلبه بتقادير الإله فأفردها، ورأى النقصَ منها كمالاً يميزها، وعُرِضَ له ما خفيَ من محاسنها – لم يلحظها غيره –، فاهتبلها وعدَّها غنيمته، وطار بها يحدِّث عنها مهاجرَ الطير. ولذلك كلِّه تغشَّاه طبعٌ من المسامحة ما عهده، فصار دائمَ الابتسام، ودوداً طلِقا، بل وأعيد ترتيب ذراته فيه مذ اختارها منه الفؤاد، فأضحى للجمال معنىً واحد، وما عداه أصنافٌ يمرُّ عليها؛ تلحظها منه عين رأسه، فتغضُّ عين القلب الطرف.. يملؤها الرضا.

وتجول المحامد: تُعرض على عقله، فيرى الأعلم والأفقه والأذكى، فيومئ برأسه مستحسنا؛ ما كلت عينُ المحبِّ منه أبدا، ولكنَّها المسامحة والحنو والغفران، فتهفو روحه لها هي بعينها، يمسح على نقصٍ فيها بيد محبته.. فتبرأ كأن لم تكن!

بينه وبينها (9):

ما كان أعمىَ أهوج، ولا جامحاً أرعن، ولا تفطَّرت له الأكباد ولا التاعت قلوب، وما اشتكت غائلته سهد العيون، ولا تناقلت أخباره قراطيس وألسنة، فحُفظ عن عيون الخلق فأسداهما التخليص، وتنزَّه عن مجونٍ وجنون، ذلك أن سرى بينهما عذباً فراتاً كما بردى: رقَّ لهما مذ قيل في الأرض هذه لهذا بلحظ القبول، فواعدهما ببردِ الوصال وعذبِ المعين، وألان لهما سبل السمر وأغض، وأدفأ لهما شرابَ السلسبيل، ثم باركهما فأرخى جداوله تسري في العروق بارخاء الجدائل، فاهتزَّ فيهما وربا بهيجاً طيبا.

جهلت هي ذاتها، فما أن وجدته حتى علِمَتها فيها، واستيقنتها منها، فكانت لا ترى صورتها إلا انعكاساً في عينيه، ولا تسمع صوتها إلا رجع صدى نبرته، ولا تبرح الفِكَر عقالَ رأسها إلا إذا غدت تتهادى إليها ممهورةً ببصمته، فكأنما هي الروح تهيم لا تلوي ولا يقر لها قرار، كمن أضاع ثميناً من بعد أن امتلكه في حياةٍ سابقة، ثمَّ فقده = لا تعلم كنهه ولا وصفه فتحتار، فمتى ما وجدته كان النجاة التي قُدِّرت لها وطارت بها إلى عليين..

وتلقَّفها هو، وهي البضعة منه ومُنيته، يصبغها فتنصبغ، ويرفعها فترفعه، يحنُّ إليها وهي معه، فيسبل عليها تحنانه حامداً من قدَّرها له. يجالسها – أول عهده بها - والسكينة تحفُّهما فيُسلم الزمان طبائعه: لا سلطان له عليهما إلا تمكين ما وجدا من ألفةٍ لا يوطِّنها إلا تتابع السنين، وتعاقب الأحداث؛ يجدها منها مذ أبصرتها عين قلبه، فتسري بينهما رائقةً لا شاهقة، جليلةً لا عاتية، تدوم ما دامت الروح، فيستويان بعد عروج... ويسكنان الأزل!

حكمة دعسوقة

قال كليلة: والجمالُ: مبهمٌ نسبيٌّ، لا يحدُّه تعريف، ولا تقيِّدُه مخايل، تلتقطه العين، وتحوِّله صورةً، خلواً من روح، فيسبغ عليها الدماغ أحاييلَه، ويدليها للعين، فتنظرُ بعينِ الروح منها تارة، وبعين الطين تارةً أخرى..!

قال دمنة: ولكنّ من الجمال؛ الخاطف للأنفاس، الزاعق بأعلى ما فيه: ها أنا ذا..

لا تجدُ معه عينُ الروح إلا أن تقر وتخصع، معلومٌ بالضرورة، لا تنكره عينٌ وإن رمدت.

قال كليلة: هو ذاك يا دمنة، ومثلُ ذلك الجمال، يظلُّ وقفاً كقصرٍ فارهٍ، باذخٍ فرشه، ينتظر قاطنيه، يجوسون فيه؛ تأمُّلاً في زخارفه، يذرعونه روحةً وغدوة، ويتوسَّدون نمارقه متكئين، وما ذلك كله: إلا بحسن الرِّفد: الذي رسولُه الكَلِم، وفارسه الطباع، وصولجانه الخصال.

وما ذلك بجالٍ إلا كما كان من قصة: الدعسوقة والفراشة.

قال دمنة: وكيف ذلك يا كليلة؟

قال كليلة: يُحكى أنَّ فراشةً ربت يرقةً في بستانٍ ذاخر، يؤمُّ الجمالُ أركانَه، ويستوطن نواحيه.فما أن نفضت عنها سرابيلَ خِدْرها؛ حتى ازهوَّت فيها مُثُلاثُ الجمال: جناحان أبهجان أينعان أورفان، جمعتا من الألوان أنطقها، ومن الأشكال أذوقها، كأنّهما – الجناحان– مرابضُ فراشٍ تكاد من دبِّ روح الجمال فيها أن تطير، وتزقزق فيهما ألفُ ألفِ فراشة، كل واحدةٍ متهم أغرودةُ الفن، وميثاقُ الكمال.

قال دمنة: سبحان الله!، سبحان الله..!

قال كليلة: سبحانه سبحانه.

وكان يا دمنة، أن ما أشرقت شمس: إلا وعلى جناحي فراشتنا رست، وما أينع ربيعٌ إلا فيها ائتلق، رهيفةٌ أطرافها دقيقة، رشيقةٌ رقصاتها.

فهي المليكةُ ولا منازع، تطلُّ على بستانٍ فيه الجمال يترصَّد، فتلتوي لها أعناق الزهر تناجيها، وتنحني لرقِّها نسائم، فتحملها هوناً، كأنَّها تخاف عليها وقعَ النسيمِ إذ حمل.

وهي على حالتها تلك: من مخايلَ وأخيلة، ومن حولها عُمِّيَ عن جمالٍ إلا فيها، حتى نادتها فيها نزعةُ الأنا، واستلبتها منها، بجني غيرها عليها، إذ لاقى ضعفاً فيها: يرى كماله فيما أُكتسِب..!

أقول: وهي على ما رُكِّبَ فيها؛ حطَّت على زهرةٍ اختارتها، يجمعها معها بهاءُ الشكل واللون، تنكرُه فيها؛ باتخاذها عرشاً تستوي عليها: أُمثولةً متفرِّدة.

وما أن لامس دقيقُ القدم نسيجَ العرش، حتى لاحت منها التفاتةٌ ملكيَّة، لتتفاجأ بدعسوقةٍ صغيرة، بريئةِ المظهر بسيطتِه، هادئةً هانئة، اتخذت من ورقةٍ خضراءَ يانعة –لذات الزهرة– مهبطاً ومُستراحا.

فضجَّت منها عروق الفراشة، وانتفشت باسطةً جناحيها، ومرعدةً مُزبدةً خاطبت من عليائها الدعسوقة: – يا أنت، ألا تسمعين!! أُخاطبك أنت يا مُنقَّطة.

تخرج عن سكونها الدعسوقة، وتجيب: ألتمس عذرك سيدتي، قد كنت ساهمةً في ملكوت الخالق، أتأمل جليلَ صنعه، وعظيمَ قدرته في كلِّ ذرةٍ ممَّا خلق..!

تتعالى الفراشة: أنت يا صغيرة تتأملين!! ، بل وتسهمين وتسيحين!! ، فماذا تركتِ لمثلي أنا يا سوداءَ منقَّطة!!

تردف دعسوقتنا: أما نفخَ فيَّ ربي روحاً كما نفخها فيكِ!، وحباني عقلاً كما حباكِ!.

موجودةٌ مخلوقة، إبداعُ ربي في خلقي مشهود، لا ينكره إلا جاحد أثيم.

متبخترةً تتباهى الفراشة: وكيف لمثلك يا فيلسوفتنا السوداء، أن ترى جمال الخلق وجلاله من خلال عينٍ لا انعكاس للجمال فيها!!

كيف لفاقد الرَّوعات في ذاته، أن يراها في غيره، أو حوله!!

ما عهدتُ الناقصَ إلا ناقصاً في كلِّ شأنه، وفي أصل نفسه، وكذاك صفاته، فكيف لك يا منقَّطة أن تحوزي عين المُبصر المُتأمل، وعينك كليلة، وروحك بذي النقص عليلة!! كيف!!

تتسعُ حدقتا دعسوقتنا اندهاشاً؛ من منطقٍ أُلبس أرديةَ الحقِّ عنوةً، يداري سوأةَ عفنِ الباطل، وترد بيقين الواثق: والحقُّ تبارك وتعالى؛ لا يقيِّدُ جلالَ خلقِه، وسلطانه: شكلٌ ولونٌ يُخاطبُ الطين، بل يتعدَّى قشورَ الفهمِ السقيم؛ إلى رحاب العظمة وأرديتها السابلات، فيرى في كلِّ ما خلق؛ جمال.

أما رأيت الغرابَ الناعق: تنتكسُ لصوته الأرواح وتسقم؛ حباهُ ربي جناحين سوداوين، كما حُقَّ لجلال الأسود أن يكون!

يمخر عباب السماء بذا الجناح، كما سكينٌ تُمهرُ ناصعَ البياضَ مداداً .

بل، أما رأيتِ خنفساءَ الأرض، تلوذُ بطين، لا تكاد تراها العين، حتى تمتعض، وتوسعها طيناً يداريها بقدمِ الإزدراءِ والتَّسفيه، فإذا اختلفت العين الناظرة: بروحٍ مشبعةٍ بجمالٍ فيها ساكن، وَقَرَ واتكأَ في ذراتها؛ حتى رأت في القبيح المُستقذر، ما تلهجُ به أن: سبحان الخالق!

ساخرةً الفراشة: هاه.. ياللمنطق الأعوج!، يا للفكر الملتوي! الجميلُ يا صغيرة لا يحتاج محامياً ليصدح: ها أنا ذا.

لا تنكره عين، ولا تتجاهله ذبذبةُ روح، أبلجُ كرائعة نهار، لا تملكين أمامه إلا الخضوع، معترفةً بسلطانه، سائحةً في أرجائه – سرَّاً أو جهرا – تتذوَّقينه بعين الروح منك، أو عين الطين، الحاصل أنَّك–برغمك– تلحظينه، وتعرفين، وتعرِّفينه بصفته فتردفين: ياللجمال!

متمهلةً ترد صغيرتنا: ومن ينكر أي فراشة! ، والجمال صنع الخالق، وفيه تتجلَّى قدرته، فتُستلب العقول، وتخضع الأرواح، وتنقاد الجسوم؛ حقٌّ لا يجادلُ فيه إلا من أوتيَ الجدال في قلبه مرضاً، أو كلَّت منه العين لسقم الروح منه.

هازئةً مستعلية: هاه.. أرأيتِ يا مُتحاذقة!، وإني لا أراكِ تجادلين إلا لنقصٍ فيك، تبغين إثباته نقصاً في كمالي.

مطمئنةً دعسوقتنا تجيب: وربي خلق: جمالاً مبهراً كقرص الشمس، لا تفلح العين أمامه إبصاراً، فتخضع الروح، والعينُ منها بكماء، تتهجد في المحاريب، للصنعة، لا للصانع؛ فتنةً للمتعبِّد، والمُتعبَّد.

وجمالاً هادئاً رقراقاً كنبعٍ سلسبيل، تُنبتُ الحياة على جوانبه تفانينَها، وتزهر أكاليلها، تلحظه العين والروح في آن، تجد معه وفيه؛ السكينة والسلام.

وجمالاً؛ لا يلحظه إلا الواحد، بعينه وصفاته، فيعظم ويورف، حتى ليغدو كقرص الشمس إذ بزغ في روحِ واحده، ليغدو وطنه، وهو عند السواء: ممر قوافل!

العبرة، كلُّ العبرة، في عينِ الروح، تضفي على خاصتها: هالةَ الجمال، وتحرم الأغيار منها – بصدق تنسُّك –، أو تضعهم في مرتبةٍ دنيا.

فإن بزُّوها في عين الطين؛ بزَّتهم جميعا في عين الروح..!

متشكِّكةً: ولكنَّ الجمال خيرُ رسول، وترجمان الآي، ومباهج النفس والعين يا صغيرتي.

متبسمةً دعسوقتنا: أداةٌ هو، نسبيٌّ لا مُطلق يا عزيزتي، بل إنَّه – على نسبيَّته – لا يشترط معه تمام صفاء الحال، المؤدي للسعادة، مبتغى كلِّ أرضي؛ كسلاحِ جنديٍّ في معركة، تارةً ينوءُ بثقله وقد أُلقمَ مصارعاً، وتارةً يجد فيه الخلاص حياةً مع حياة.

ضمِّي جناحيك يا حبيبة، أرجعيهما إلى الوراء هكذا، نعم.. انظري في انعكاس عينيَّ الآن، ما ترين؟!

تقترب الفراشة من عيني الصغيرة، وتبحلق، فترتدُّ على عقبيها الدقيقين مجفلة: يا ربي، من هذه!!

تطمئنها الدعسوقة: لا تجزعي عزيزتي، فكما للجمال أوجه، فللقبح وجوه، يعكِّرُ صفوَ جمال الجسد الفاني في أحوال.

أما رأيت من حاز جمالَ الطين فيه كأكمل ما يكون: وقد تمعَّر وجهه حين الغضب، أو التصقت في خطوه، ولفتات عينه: مخايل الاستعلاء والكبر، أو من اختصر جمال الكون في أناه، وأنكره على الكلِّ – وإن قارب، وإن تساوى – حقداً من لدنه، أما رأيتهم جميعا – وهم على أحوالهم تلك – هل أبقى لهم الجمال من شيئٍ وقد أُلبسوا القبح صفاتٍ، فمازجت عكارته جلال الصنعة!

تومئُ الفراشة – ترقبُ قبحَ هيكلها إذ جُرِّدت من جناحين– : على أقبح ما يكون.

فتردف الدعسوقة: كذاك الروح الجليلة، إن وافق ترددها تردد موجات روح، فتضفي على العاديِّ سحرا، يُخفي المستقبح، بل.. والقبيح.

وكذاك الجميل– في مادة طينه – يلبس روحه القبح، أو يستوطن منحىً فيه، في حالٍ منه، فيحيله شيطاناً مريداً تتأبَّى مفاتنه العين!

مؤمنةً خافضةً جناحيها: القول ما قلت.. القول ما قلت.

كليلة: فما قولك يا دمنة..!!

دمنة: وياللعجب..!!

من الذى أوصد الباب فى وجه عائشة !

تعرّفت عليها وأنا في سنتي الجامعية الأولى من كلية الهندسة، في جامعتي الإسلامية الحبيبة، وقتها لم أكن قد تخصصت بعد، وكانت هي في سنتها الثانية من قسم الهندسة المدنية!

كنت أراها شعلة من النشاط والحيوية، منطلقة تحب الحياة، كنحلةٍ تتنقل بشكل عفويٍّ بين المجموعات، تحادث هذه وتلك بأسلوبها الشيق الفتان، تلوح بيديها يميناً ويسارا متفاعلةً مع الحوارات، ترغمك على مجاراتها والتفاعل معها، ضحكاتها تسبقها أينما حلت، وصوتها الرنان يقتحم عليك الباب، فيسلبك تركيزك، ويرغمك على الابتسام تارة، والتأفف – بحثاً عن التركيز المفقود– تارة أخرى!

محطَّ أنظار الجميع كانت، يناديها الأعلام من الأساتذة باسمها، يوكلون لها المهام، ويمدحون ذكاءها وسرعة بديهتها، حتى من كان منهم جلفاً متعاليا كانت هي بطريقتها الساحرة العجائبية، ونقاشها المنطقي السلس– ونحن اللاتي كنا نخشى رفع أنظارنا إليه– تنتزع منه رضىً وتقديرا!

وكانت محجبة، وكانت مجلببة، من عائلة لها اسمها وسمعتها، وكانت لازمتها الشهيرة كلما ودت مواصلة الحديث "اللهم صلّ ع النبي، وين كنا؟"، لا يشوب أخلاقها شائبة إلا إذا كانت السعادة والانطلاق والأمل .. مما يعاب!

وكانت – على كل هذا – موضوع لغطٍ وجدل للصنف المعتاد منهن، واللاتي يجدن في كل ناجحة بهية الحضور هدفاً مناسبا للتمرن على إطلاق وتصويب السهام!

في مجموعات سوداء يلتففن حول كبيرة لهن، أسلمنها مهمة القنص المباشر، يتغامزن على المسكينة ويتنابزن، يشرن إليها بأصابع –ليت ربي يقطعها– التهديد والوعيد، ويترصدن لكل من اقتربت منها: ينصحنها بالابتعاد عن خليلة السوء وإلا سحبتها معها إلى الدركات، فإن أبت توعدنها بالويلات، وحكمن عليها إنها لمتهتكة، لا تعدو أن تكون أشر من صاحبتنا وأبعد عن رب السماوات!

وإنك لترى سواد القلوب يقطر حقداً وغلاً من الوجوه، فيمصمصن شفاههن إذا ما مرت من أمامهن، ويعرضن إذا أقبلت ويلوين الأعناق، حتى من قررت أن تقوم بدور الفدائي – بعد جدل واسع من مقاربة المنكر خشية الوقوع فيه– اقتربت منها، وشدت على يدها ..
قالت: أخفضي صوتك يا هذه، عيبٌ عليك، ألا تخشين الله!

وهن في هذا كله يدعين الغضبة لله من هذه الفرِحة المترعة بالحياة، وإنك – يا متأمل– لواجد أنّ كثيرات منهن ما كانت غضبتهن إلا لذواتهن، أن فاقتهن وظهرت، وسرى اسمها بكريم خصال بين الخُلَّص الأعلام، وهي التي حاذى منكبي منكبها في صلاة تلوت فيها من الطوال، فسبقتُها وسلّمت، وهي مازالت في صلاة السنة غائبة!

من أخبرهن بأن الله عدوٌ الحياة! من صوَّر لهن بأن الدين هو قولة حرّمَ الله، ونهى الرسول.. وكفى! من نفث في عروقهن هذا السم الزعاف، فتهاوت له قلوب مدعيات الصلاح في صحارى التيه، من بعد أن فقدن البوصلة، وهن – المسكينات– قد نصَّبن أنفسهن نجمات شمال !
صاحبتنا هذه يا سادة ابتعثت إلى خارج البلاد لاتمام دراستها العليا!
صاحبتنا هذه يا سادة جاءتنا أخبارها فصعقنا وذهلنا، ومادت الأرض بنا، وكدنا من رهق البكا نسلم الروح!

صاحبتنا يا سادتي الكرام.. تنصَّرت !!

تركت ملة آبائها وأجدادها، ملة الإسلام.. وتنصرت!

ارتدت.. عائشة ارتدت، وهي الآن تناظر في كل ميدان باسم دينها الجديد!

عائشة تقول: ما الذي قدمتموه لي يا مسلمون.. يا مسلمات!!

ما هي جريرتي! قولوا، أجيبوني.. ما هي جريرتي، حتى أشهرتم رماحكم في عقر صدري، وذبحتموني باسم الدين!

حاربتموني، وقتلتم إسلامي فيّ، كان الله في قلبي، فقاتلتم الله وأنتم تتنادون :لا إله إلا الله!

أنا عائشة واليوم أنا سارة .. وأنتم كلكم.. مجرمون!

قولوا بالله.. إن لم يلطف ربي بعائشة، وأماتها على ما هي عليه.. أتُساق إلى نار جهنم وحدها ! أم أنها ستأخذ بيدها.. الغربان السود !

اللقاء الهندسي.. عين الرضا

كنت اليوم في لقاءٍ هندسيٍّ فريد، جمع أساطنة علم الهندسة المدنية هنا، لمناقشة مستجدات أزمة العمران في ظل الحصار، وشح مواد البناء، والبدائل المقترحة للتعامل مع هكذا أمرٍ واقع، في ظل الصمت المطبق، أو التجاهل المتعمد لحصار شعب، وتقزيم قضيته!

ألهو في قلمي الرصاص في انتظار بدء المحاضرة التالية في برنامج اليوم العلمي الحافل، عندما ولجت باب القاعة هي، متأخرةٌ فاتتها محاضرة كاملة، والكل قد التزم مقعده، يسجل أو يراجع ما سجل، دخلت القاعة تسحب وراءها ساقاً معطوبة، ترتكز على عكاز تسند إليه ثقلها، وساقها تلتوي من أقصاها إلى أقصاها، فيلتوي لها الجسد بأسره، في مشهد يدمي القلب، خاصة إذا جسرت فرفعت عينيك لتبصر وجهها الملائكي ذاك..!

تتسحب جاهدة، وتركيزها منصب على ميكانيكية حركتها، حتى بلغت مقعدا قاصدا، التزمته بهدوء تام، وبجوارها أجلست رفيقها.!

زميلتي بجانبي تميل علي، وبصوت خافت تتمتم :

- أتعلمين من هذه!
- لا، أتعرفينها أنت!
- نعم نعم، إنها المهندسة فلانة، تعمل في قسم التخطيط العمراني بالبلدية.
- ما شاء الله تبارك الله
- نعم، ولو تعلمين ماذا أيضا!
- ماذا أيضا؟!
- هي عروس، لم يمض على زفافها أكثر من شهر.
- صدقا!

- أي نعم، وهل أزيدك!
- زيديني
- زوجها هو البروفيسور فلان
- البروفيسور فلان الذي نعرفه!
- نعم نعم، هو بعينه
- ضيف شرف لقائنا هذا ! هو ما غيره!
- صدِّقيني نعم.

- سبحانك ربي! تعلمين! أنا لم أره قط، مع أن كتابه"كذا "من مراجعي التي لا تفارقني.

و بابتسامةٍ ماكرة، وهي تتراجع بظهرها إلى الوراء : - - حقاً ! سترينه اليوم إذن.

مضى خيالي يسرح بي لأتكهن شكله، هذا الذي اقترن بمهندستنا تلك، بدأت أولى مراحل خيالي بلحيةٍ وسمت إلتزام، وانتهت بسنين عتيا، أكلت عافيته على مائدة جسدٍ متهالك، وأنا بين هذه الصورة – من صور الخيال – أتعجب وأحتار!

وحانت اللحظة، ليقدِّم عريفُ اللقاء البروفيسور المنتظر، والتي ما أن نطق العريف باسمه حتى تحفزت حواسنا أنا وزميلتي، وانحبست أنفاسنا، وتعلقت عينانا بباب قاعة الضيوف المشاركين!

تلاحقت أمام عيني الصور، علِّي أرى سمت الإلتزام المعهود: لحية وأخواتها، فدخل علينا الباب بلحيةٍ خفيفة، وبذلةٍ باذخةٍ أنيقة، أعتقدها "أرماني "وما شابه، فقلت: خير خير، وماذا بعد! فتعهدت مشيته علِّي أجد انحناء المناكب، أو ألحظ ارتجاف الأطراف، فأبى إلا أن يكون ذا قامةٍ فارعة، وعود منتصب، فعقدت أطرافي محتدة، ونظرت علّي أجد في وجهه ضربة سكينٍ –تنبي عن شقاوة– أو تشوهٍ ما مريع، فوجدته قسيماً وسيما، ملامحه تريح الناظرين، فقلت: الآن ما بقي إلا أن يخرج لسانه لنا، ويتساقط الزبد من شدقيه، أو لعله يعدو بيننا على أربع! ولكنه، وبكل اتزان ورسوخ خطا كملكٍ مهيب إلى أن بلغ منصة الإلقاء، فقلت: الآن الآن يخرج صوت نكير، ومنطقٌ ركيك، ولعثماتٌ وتأتأة..

فسمّى وشكر، وألقى كلمته كمن اعتاد اعتلاء المنابر، حتى قلنا: هل من مزيد!

فقلت والدهشة تعصف بي: وماذا الآن! لا تقنعونني أرجوكم!! لابد من خللٍ ما، أو لعله سر لا تطلع عليه العيون!

ملت برأسي ذات اليمين حيث استكانت هي الوادعة، فوجدت محييً ينطق بالبشر، وابتسامة لا تتبدى على الشفاه، بل سكنت العينين، فأسدلت على قسماتها شفافية تكاد الأرض تميد بك لعذوبتها، وسكينة تغشّاها ولا ترتحل !

وتحين مني التفاتةٌ إليه وهو على منصته، وحديث يعجُّ بالأرقام والمنحنيات والخرسانة والتسليح ، لتأخذني نظرة واحدة رماها بها، وكأنه أودعها روحه، لتسلم على روحها هناك، ولا تعود.

يا لله! يا لله! وتقولون جمال! أولا يحب إلا الصحيح الجميل! أوربك الرحيم كتب للسليم نصيباً من متاع الروح، وحرم منه السقيم!

الله يا ذا الجلال: فليذهب الحب الذي أتى به الجمال حيث ذهب أصحابه: قيعانٌ وطين، وليعلموا أنّ حظوة الحب التي أسمتهم عاشقين، حاز منها الجمالُ نصيباً وسبَّب، فكان حباً لا يتعدّى الجلد والقشور، إن زالت تعرَّى، ليسفر عن زيفٍ ووهم!

وأما الشاهق الجليل، الأثيريُّ الشفيف .. فإنه يسمو ويبقى، ويصول في سوح الأرواح.. ويجول!

فقه الجمال

تعلّم أنت ذلك الإحساس المريب بالمراقبة، ذلك الذي تنتصب له الشعيرات خلف رأسك، وتغمرك هالةٌ عصيَّةٌ على التفسير، تأتيك من خلفك، فتتوتّرُ لها عضلاتُ جسدك، وقد تحفّزت لتصدَّ خطرَ العينين، اللتين صنعتا منك بؤرة اهتمامهما.

تلتفت – رغماً عنك– محاذرا، لتصطدم بهما: عينان هما، توسعانك تحديقا، تلتهم سكناتك قبل الحركات، تلتفت بكلّك لمزيد تمحيص، تبدأ عيناك برسم معاني الانزعاج الذي يحمل التوبيخ، لتفاجأ بما يصدّهما عن قرارٍ عجول!

تأتيك الابتسامة المترددة على شفاهٍ ترتجف بالاعتذار، لتنزاح بارتجافهما عن أنخرِ صفين، يمكن لعقل طبيب أسنانٍ محنّك تخيلهما في دائرة المعارف المصورة، تلك التي جرؤ على اتمامها يوما!

تصعد عيناك ببطءٍ مرتخٍ، تجول في ملامح تستدعي الخيال، بضدِّ كلِّ منطقيٍّ.. ومعقول!

يا لله! مازالت بسمتها تهتز على شفاهٍ معوّجة، كانتا تحسبان نفسيهما ممراً للمشاة مثخناً بالحصى، تحت أرنبة أنفها المرتعشة، الذي يكاد يحتل مساحة نصف وجهها.. أو يزيد!

وعيناك تتأملان، وقيهما يلوح بريق أبعد ما يكون عن الشفقة! بريقٌ شفيف، يسري فيهما نهماً ليستعمر ملامح وجهك بأسرها بمزيد سنىً، فيغمرها بفيض الحب!

تتسع ابتسامتك، وتزقزق عيناك، تمنحها تشنيكة أنفك الشهيرة، تحييها غمّازتك، وفي داخلك.. يغمرك السلام!

اللهُ يا جميل، ياربَّ الجمال، أشهدك يا حبيبي، أنَّ صنعتك تلك.. مِن أجملِ مَن رأيت!

اللهم قوقز رجالنا

يُحكى أنَّه في بلادٍ بعيدة بعيدة ، ذات زمنٍ كانت الرجولة فيه لم تختزل بعد بصقرين يعتليان شاربين، لتندحر بعدها صقور الأرض خاسئة، فما من شوارب لتعتليها..!

في هذا الزمن البعيد، كانت المرأة بكلِّ أنوثتها؛ تحفظها فيها = حرماً مصوناً لكلِّ الرجال الرجال، يُذاد عنه بالمقل، والروح لا تُضن إن مسَّ طرف ثوبها شبهةُ الوحل..!

وهي في خدرها ربَّة العفاف، تزهو بهودجها المتمايل على أكتاف الرجال، مسدلةَ الستور: لجلالها، غاضَّةَ الطرف: لرفعتها، فإذا ما شانها شائن، تصدَّعت الأرض بسيول الدم.. حتى ترضى...!

يُقال –والعهدة على كتب التاريخ – أنَّه في ذلك الزمان الرغيد، إذا ما عنَّ للرجال استعراض ما فُطروا عليه من أُبهات القوة والعنفوان، فأزلَّهم الشيطان، وأنكى بهم ، ونفث نفثته بينهم، فوزِّعت بهم الفساطيط اثنين، وتناطحت القرون، وأُبرقت الأسنَّة، وكلا الفريقين يجدُّ الوسع تنابزاً بالنِّصال = فما يكون من امرأة ، السيدة المُطاعة، الرَّبة المصون =إلا أن تنزع عنها حصنها خمارها، فيُسارع الرجال– المتجلِّية فيهم رجولتهم أفعالا – إلى أن يغضُّوا الطرف حياءً، ويلقوا ما بأيدهم من مداد التهلكة، فيتفرَّق الجمعان، وقد لمَّ الله شعث قلوبهم –طبع رجال– فيمضي فعلها بين القوم فصلاً... فإصلاحا.

مذكرات امرأة فقدت ظلها

كان عليها أن تعلم ذلك منذ البداية، كان عليها أن تعلم؛ كل تلك العلامات، كل الدلائل، كل الإشارات: المعلنة منها والخفية، كلها كانت تحاول إيقاظ ما بقي فيها من بصيرة، تحاول جذبها من تلابيبها: تهزها تارة بكل ما أوتيت من قوة، تكاد معها تتصدع أركانها، وتتفتت دواخلها، وتحايلها تارة أخرى: كأُمٍّ حنون، تأتيها ذات اليمين وذات الشمال، تلهمها الخلاص. تنقر على شباكها كل صباحٍ العصافير، على زجاجٍ مبزَّر، تحفُّه النقوش، نقراً خفيفاً منغَّما:

– تيك تيك تك تك، أشرقي، أرجوك..أشرقي!

تناجيها ستائر شباكها الوحيد، في زاويته القصية، وأسفله مكتبها، العامر بأوراقها ومحابرها، مع نسائم صباحية تداعب المكان، تلاطفه:

– هووف، هوووف، تعالي، أرجوك..تعالي!

حتى أشعة الشمس الضاربة في أصل عينيها، لتشرق فيهما، فتحيل لونهما – الذي من شعاعها– ألوانا، تحاول مدَّ أكفِّها إليها ما استطاعت، لتسحب بكلِّ رفقٍ خيطاً حريرياً غُزل فيهما، تزهو عليه ألوان قوس قزح:

– انهضي، اقفزي، اركضي، تعالي!

ولكنها – وبكل ركودٍ فيها – تجاهلت كل شيء حولها: كل الشقشقات، التكتكات، الهتافات... والزعيق. تجاهلت كل شيء، كل شيء، فقط.. لتنعمَ بلحظاتٍ عدَّتها الحياة... في مزيد ركود!

مذكرات رجل خسر ظله

يومٌ قاسٍ آخر، متهاوٍ على مقعده مقابل نافذته المسدلة الستائر، ما انفكَّ يكررها في ذهنه، كشريطِ تسجيلٍ عالق: يومٌ قاسٍ آخر. الصخبُ أسفل منه يستعر، مزيجٌ صباحيٌّ عجائبي يقرر طرق مسامعه، أشعةٌ حييَّة تحاول هتك أستار عتمته الكالحات، تتسلَّلُ بخفرٍ لتصنع ظلَّاً له جسد، يُلقي الظلُ بنفسه على أطلاله العالقات بثيابه المتهدِّلة، ليعلقَ على شِباك أهدابه، يرتجف الظل محاولاً تخليصَ كينونته، لينتفضَ هو من ثقلٍ إضافي راوده عن غفلته، تسنده قدمٌ ترتكن على حافة هاويته، يقف، كمن ذُهل عن نفسه ... يقف، يرقبُ نافذته وستائرها متوجِّسا، في سرِّه يشتم الشقوق المتلصصة، الناجية من مصيدة الإسدال المحكم، تمتدُ أصابعه الناحلة بوجلٍ مرتجفٍ نحوها لينهي مهزلة النور المتربِّص، يبلع ريقه، ويرفُّ جفناه، وفي منتصف الطريق إلى الحركة الفاصلة إحكاماً، وبحركةٍ سريعةٍ لم يعيها عقله.. يدفعُ شراعي نافذته على الوسع، ليشهقَ نورا..!

أنا الغريبة

أذكُر أولَ عودتنا إلى بلدنا – بعد اغتراب– أن سكنّا حيَّاً من أحياءِ غزة راق، جلُّه من النصارى، ببيوتهم الفارهة، وجنائنهم العامرة، وهدوؤهم المفرط، كأنّ الطير على رؤوسهم في كل حين..!

وكان أبي –*حفظه ربي ورعاه*– قد عمد إلى تسجيلي في مدرسةٍ لا تبعد عن بيتنا الجديد إلا ثلاثين متراً أو يزيد قليلا، وجعل صبيحة كل يوم يصطحبني إليها سيرا يوصيني طوال الطريق بوصايا الآباء المعتادة، ويسرِّي عني ببضع أحاديثَ خفيفة، نتضاحك لها سويّاً –وأنا الغريبة، ما لي صديقة بعد، ولا رفيقة– وأتقافز حوله، فيردُّني إلى جانبه، يجذبني إليه منبِّها بما سلف وأوصاني به من آداب الطريق...!

لبث هكذا أسبوعاً كاملا، حتى غلب على ظنِّه أنني حفظت الطريق– السهل اليسير– إلى مدرستي الجديدة، فكان أن أعدَّني في ليلتي: غداً –إن شاء الله– تذهبين وحدك..!

وكانت ليلة: عجّت بالكوابيس، وأمِّ إلياسَ العجوز تُطاردني بعكّازهاالمعقوف، وحدبة ظهرها المخيفة، وباب المدرسة بعيد، وأنا ما لي صديقة بعد، ولا رفيقة، أغافلها عن يمنتها لأجدها أمامي، فأدور حولها ليتلقَّفني العكّاز يأخذ بعنقي..!

أنتفض لأجد أصابع أمي الحانيات حول وجهي، توقظني للموعد المحتوم، فألوذ بالفراش أدّعي المرض، لتبسم هي: حيلةٌ مكشوفة...!

تعدُّ كأس الحليب العتيد، والذي تأباه معدتي المنقبضة من وجل، ترغمني عليه، مع الكثير من حديث الكالسيوم وهشاشة العظام الذي اعتادت –حفظها ربي ورعاها– إتحافي به مع كل فطور..!

صوت المذياع يتعالى بإفتتاحية برنامج: بريد الإسلام، تقدمة عزت حرج، لتغدو تلك الإفتتاحية مقياس تأخري من عدمه طوال سنيٍّ دراستي، وفيه الإيذان بوجوب المغادرة الآن، لتبدأ رحلة أوديسيوس.. إلى المدرسة..!

تزحف بي خطاي، أقدِّم قدماً وأُرجع أخرى، وأم إلياس نائمة تشخر ما تزال، لا يصحبني غير عصافير تسعى على أرزاقها بمزيد ثرثرةٍ نسميها زقزقة، وهبّات النسائم الصباحية تلهو حولي، فأُعنِّفُها بحركات يدي العصبية، وأُعيد ترتيب ما أفسدت..!

ولكنَّني ما دريت لم انتابني شعورُ المراقبة ذاك، فجعلت أتلَّفت- مخالفةً الوصايا- علِّي أتعثَّر بالعينين الملاحقتين، ولكن... بلا جدوى، فأزيدُ همَّاً على هم، ووجلاً على وجل، كأنّه ما كان ينقصني إلّا أحداث فيلم الأكشن هذا، كأنّ فيلم الرعب الذي أعيشه لم يكفني..!

ومضة.. ومضة تشق تلافيف دماغي المعبَّقة بالخوف، تعقبها نصف ابتسامة خبيثة، تليها تشنيكةُ الأنف المعتادة، لتكتمل الابتسامة، فتزقزق خطاي مُجدَّة نحو هدفي، كأنَّني أثبتُ أنَّني لها، لتعود الومضة إياها، ولكن هذه المرة سيطرت نصف الابتسامة الخبيثة على معالم وجهي، فجعلت خطاي تتخبَّط، وتتنكَّف الطريق، تتوه في معالمه الواضحة الجليَّة، فأدور حول نفسي بحيرةٍ تسلبني، ثم أقرر أن أقف.. وأبكي..!

حسناً، يبدو أن خطتي الثعلبية نجحت، علمت هذا مذ قرعت مسامعي صوت خطاه تجدُّ السير نحوي، لتأخذني في حضنه هنيهات رضىً وحبور، ليحملني بعدها، عائداً إلى الدرب الصحيح - الذي تخابثت عنه- ويهمس في أذني، وهو يربتُ على ظهري: لا بأس، ربما تحتاجين أسبوعاً آخر ..!

أزيدكم! طيب، ما علمته أنّه كان يدري بتخابثي، وكانت ذات النصف ابتسامة إياها ترتسم على محيَّاه الحبيب وهو يحملني، ولكن: لأنّ ليس لي صديقة بعد، ولا رفيقة، ولأنني غريبة بلاد - مثلما يقولون- و لأنّه أبي الذي ظفره بالدنيا ومن فيها.. حسناً، تعلمون.

سديم قلب

كلُّ القلوب تتشابه، كلُّها تتشابه حتى لتحسبها انفطرت عن قلبٍ واحد، قلبٌ اختزل في سديمه المقدرَ والمقسوم، وتشظَّى مع الغبار الكوني ليتوزع في صدورنا ببالغ العدل الممكن، ليحظى كل منا بنصيبه من بصمة القلب.. الواحد!

كلُّ القلوب تتقن البدايات كأبجدية موحدة تأتي بكامل بذخها في عبوة واحدة، مسبقة الإعداد، لا يأتيها اللحن عن يمين ولا شمال، تحمل ضمانة الختم الحتمي في عقد مبرم بينها، ومن قبل أن تنطق حرفا!

كلُّ القلوب تتقن ذات الترنيمة التي لا إلهام فيها، قد تغافل النوتة حينا، لكنها لا تلبث أن تعود لتنضبط مع كل القلوب: مطلعها المعتَّقٌ يحمل ذات المذاق الحريف، يلسع أو يهادن، لا فرق، ذات المطلع تحفظه كل القلوب..!

البدايات، تنتقل البدايات معنا كخبرة مكتسبة، نورثها لذواتنا في كل مرة، ونَشرق بتفاصيلها في كل مرة، ونغص في كل مرة، ثم لا نكف عن اجترارها في كل مرة، والأدهى أننا نحسبها في كل مرة ليست ككل مرة !

أنا التي لا وطن لي، لا وطن لي، أعتنق اليأس جدا ، اليأس أصل الأشياء جميعا، كما هو الحزن تماما، وكل ترهات مقاومته تعيدك إلى ذات النقطة المرهفة من اليأس الجميل، اليأس الذي معه تعتكف مع أمانك في صومعتك الخاصة، حيث المطلق الذي لا حدّ له إلا تصورك عنه، حيث الممكن لا يقف أبدا على باب المستحيل...

أنا التي لا وطن لي أعرف أنني لن أخون وحدتي أبدا، وحدتي الأصل فيّ، معها أعرف أنني الناجية الوحيدة، وأنني سأبقى بينما تعوي عواصف البدايات في الخارج، تبحث عن نهاية مختلفة لا تأتي أبدا..

أنا التي لا وطن لي، أحكم الباب جدا، وأسدُّ النوافذ جدا، أشعل المدفأة وألتحف الفراغ، ما أرحب حضن الفراغ! لا مزيد من البدايات اليوم، شكرا ..أقول أنا التي لا وطن لي..

أنا التي لا وطن لي أرى العالم من ثقب الباب يتبادل تهم البدايات الجاهزة، تتهاوى شهب غضة لم تحكم كذبتها لتصرعها البدايات، تهوي بصخب مدوٍّ يقتحم علي مخبئي، ثم تتلوى على بقايا جذوة في رمادها، وتكتسح في طريقها كل من يعترضها، أو تتداعى بصمت، تشحب وتذوي ثم تنتفض كأنها تتشبث بباقي وهم محتمل، ثم لا تلبث أن تسلم قبس ذبالتها دفعة واحدة ..كأنها لم تكن!

أنا التي لا وطن لي الناجية من المحرقة، المتشبثة بسلامها، أنا التي لا وطن لي، العنقاء فيّ تتكرت لخاصيتها، واكتفت بدور عملاق أسطوري ليس له من اسمه إلا ما تناقلته الألسن، أنا لن أبعث من رمادي، لأن ليس هنالك من رماد، أضن على التجربة بريشي الذي لم يمس، أنا التي لا وطن لي تجاوزت حدود التجربة، ترفعت عنها ورأيتها بمنظور الطائر كأجلى ما تكون، فعفتها وربضت على المطلق أرعاه فيّ، علّه يفرخ يوما.. وطنا.

صفا.. انتباه

- انظري إلى نفسك الآن، تبدين رائعة !

تستدير لتواجه مرآةً نسيت كيف للمرء أن يواجه فيها نفسه، تبحلق عيناها في انعكاسهما، يذهلها لونٌ لم تعرفه، وبريقٌ لم تألفه! يجف حلقها، تتصاعد أناملها إليه تؤازره في محنته، وعيناها تواصلان رحلة استكشاف مجهول، لم تورده في الحسبان !

إنها هي، هي، تغافل أناملها محنة الحلق، لتسعف فمها في إخفاء شهقةٍ كادت أن تتسلل منه، تتراجع مترًا إلى الوراء، كقط متحفِّز فاجأه غريمه بدلو ماء انصهر على خلاياه دفعةً واحدة، فانتفض كلُّه يتشبث بأهداب الحياة!

تدعم قلبها بكلتا يديها وتتقدم، تنحني إلى الأمام، إلى الأمام كثيرا، أكثر، تتأمل تفاصيل نسيت أنها هناك، تزدرد لعابها وتعتدل، تتلمس بكفيها قماش الثوب تستجدي نعومته، تتقافز نقوشه أمام عينيها فتسحب آخر الأنفاس من صدرها لتزفرها متقطعة..!

- أوه يا عزيزتي، كيف طاوعك قلبك على تجاهل كل هذا فيك !!

ابتسامة تجد طريقها إلى شفتيها، لتمتد إلى عينيها على مهل، تسحب الهواء بقوة، وتغطي وجهها بكفيها تخفي تهلل أسارير غالبتها ..

تربت محدِّثتها على كتفها بحنو، فتدير لها وجهًا غارقًا في الحبور، لتعود فتواجه مرآتها، وبحركات تجيدها كل أنثى تستعرض (هي) الجديدة!

- تعالي الآن، دعينا نجلس هناك، الإطلالة رائعة، ترين!

تخطو كفهد رشيق متحفز، ثم لا تلبث أن تطلق ضحكة خافتة، فتركل مشيةً تدربت عليها طوال حياتها، ثم تسلم لفطرتها العنان تقودها نحو مقعد وثير، وتجلس بكامل الألق!

- حدِّثيني الآن، كيف تمَّ لك ذلك، كيف سجنت كل هذا فيك!!

تنهيدة وعينان ترحلان إلى البعيد: أب عسكري يشتهي الولد، نظرات اللوم تنهال عليها وهو يعلِّق سترته الخاكية على المشجب، عينان تزدريان أرديتها القصيرة، والشعر الطويل، غصاتٌ وبئر سحيقة سحيقة يبتلع فطرتها، تختبئ هناك فلا يدري عنها أحد، والكثير من البناطيل، القهقهات الطويلة العابثة،

والحركات الصبيانية الصاخبة تعاند لين أطرافها، شجارات الأقران، ورأس مشجوج والكثير من الخدوش، وصبية يتخذونها رفيقا يشكون لها غدر الأخريات، أو يصارحونها بالإعجاب بهن..!

– لا أعرف إن كنت ستفهمينني، ولكنني أحبه حقا .. تخاطبها صديقة.

= أوه دعك من هذا الهراء، لا أعرف كيف تسمحين لنفسك بهذا العبث... تجيبها محتدة

لا ترى في غيمتين متعانقتين في حضن السماء إلا اقتراب تجهيز مؤونة الشتاء، ولا في الفراشات المتراكضة تستعرض زهوها إلا الإيذان بموعد التدريب، الألوان حولها تزيد في احتدادها، تقلل من تركيزها، وتدفعها إلى الجنون، الجنون الذي يدفعها لتفوق الأقران حولها، بعد أن حجبت بكل إصرار كل مشتت يحيد بها عن هدفها الذي آمنت به، وعملت له بكل عرقٍ نابضٍ فيها!

الآن هي تسير على درب رسمته في خيالها ألف مرة، وبكامل الدقائق والتفاصيل، تلتحق بالكلية العسكرية، تملأ زوايا عقلها بالأرقام والأبعاد والاتجاهات، عيناها الواسعتان تتنكران لكل تفاصيل الحياة النابضة حولها ليتفرسا في المسافات كأنها تلمسها بيديها قبل إحكام التصويب، يتمحور كتفها ليحمل ثقلا يلازمه كأنه خلق له، وتتثاقل قدماها ليعتكفا في الحذاء الثقيل...

ليس غريبا أن يختاروها ضمن نخبة من فريق القناصة، القناص الصبور، الذي يملك كل الوقت الذي في الدنيا، ليكمن ويرى ويلاحظ ويحفز كل خلاياه لتتحول إلى أذن منصتة، وعين تراقب، وأصبع ينفذ..!

تنتفض في جلستها أمام مضيفتها، لتربت على ركبتها تهون عليها: وماذا بعد!

تسحبها رائحة البارود إلى البعيد، رائحة شواء اللحم الحي على بعد سنتيمترات منها تزكم أنفها وتستوطن خلاياها، أزيز الرصاص الذي لا يتوقف، تحليق المروحيات المنخفض، صراخ النزع الأخير على بعد خطوات، وانهيالات السواتر التي أصبحت ككومة قش لا تحمي ولا تحصِّن، وكل ما عليها فعله هو أن تتجاهل كل هذا، بكل برود الكون تتجاهل، يدها على الزناد، عينها على الهدف... وتطلق!

واحد، اثنان، عشرة، عشرون، أرواح أرواح، كل روح وراءها حكايا: أم ملتاعة وحبيبة تنتظر،طفولة ضاحكة، ومراهقة عابثة، وذكريات وأيام وتواريخ، وهي عليها أن تنهي

الحكاية بطلقة واحدة، طلقة واحدة تنهي فيها صخب الحياة الرابض في جسد متكوم وراء ساتر ترصده عينها بمنتهى اليقظة.. والبراعة!

والأوسمة: واحد، اثنان، ثلاثة، عن كل زمرة أرواح تقبضها وسام يعتلي صدرها، ويسكن الصخر وجهها في كل مرة تتقلد فيها وساما جديدا..

– ولكن ... كانوا بشرا

= كانوا أعداء، بشرا من الأعداء، وكان عليّ أن أحمي الوطن.

– ولكننا نحن، نحن النساء، خُلقنا ليحمينا الرجال، من حقِّنا أن يحمينا الرجال، وهم خُلقوا ليحمونا، لسنا مطالبين أن نحيا حياتهم، ونحمل عنهم أثقالهم، كل ما علينا فعله هو أن نتقبَّل حمايتهم لنا، وننتظرها...

تزدرد لعابها بصوت مسموع، وتسرح في البعيد...

هذه المرة كان عليها أن تتقاسم مهمتها مع أحدهم، لا تكاد تذكر اسمه، ولاحتى ملامحه، يحملان المؤونة بالمناصفة، ثقلٌ على ظهره، ثقلٌ على ظهرها، حملٌ في يده، حملٌ في يدها، يتبادلان حديثا مقتضبا يعينهما على إزجاء الوقت ريثما يصلان إلى الثكنة، تعلو نبرتها وينصت، تفرض سطوتها فيذعن، أوسمتها تتكلم، ورتبته لا تعطيه الحق في الجدال!

حتى.. ماذا! هي نفسها لا تكاد تستجمع ذاكرتها، ما الذي حصل! كيف حصل! ومتى! كل ما استوعبه عقلها المتجمد أنها في لحظة واحدة ألقيت على الأرض وانكفأت على وجهها، بكل يسر وسهولة دفعتها يد الرجل، بعد كل ما خاضته، وسني عمرها التي كرستها لتدفع وتصاول وتعارك، دفعتها لتتكفئ على وجهها .. وبمنتهى السهولة... و اليسر!

ترزح هناك مقطوعة الأنفاس تحت حمل جسده الثقيل، تنفض جثته عنها، جثته الممزقة تماما، كأعتى ما يكون التمزيق والتشويه، أذناها تصفران بقوة، لا تكاد تستوعب ما يجري حولها، تلهث، تلهث، وتدير عينيها حولها في جنون، ما الذي جرى!! لتلحق أذناها بآخر صفير للطائرة المعادية فوقهما مباشرة وقد اغتنمت فريستها!

– حماك..

= أجل، فعل، أنا حتى لا أذكر اسمه، ولكنه فعل!

بروج القلب ..

– أواه يا جدة،

لم أكن أظنها بهذه القسوة، كأنها ثلمةُ نصلٍ استمرأت حزَّ رقاب الرضع.

– ما فتئت تكون كذلك يا صغيرتي.

– ولكنني ما أعددت لذلك عدته، كنت أحسب كدراتها محض منغصات تنتاب رائق كأسي، أستبين منها الضد بضده، وأعرف بها ما فقدت بما حزت.

– ومتى كانت هي بهذه الحكمة! إذا ما أتتك يا صغيرتي تسعى سعيها بنارها وشنارها حينا، وبرغائبها وفتونها حينا، لترين منها ما يعجل بك إليه وحده = إن أراد بك الخير، أو ما يشطط بك عنه = إن أبعدك وهو الغني.

– ولكنني ما اصطففت على عتباتها، جلُّ ما فعلته أن وقفت أرقبها من بعيد، ولم أحز منها – إن حزت– إلا ما يسد الرمق.

– بل لعلَّها ألين على رقاب المصطفين على أبوابها يتصارعون، وتلهث وراء من أعرض عنها زاهدا.

– وكيف أزهد وأنا التي لم أخبُر؟ أويزهد من عاش الأنصاف من كلِّ متاح، ثمَّ إذ به يرتقي إلى رتبة زاهد وهو ما ذاق ليعرف فيحكم: أينأى أم يلتهِف!

– أوترين أنَّ محل المعرفة ما ذاقته الحواس!

– أوليست كذلك! كيف أعرف ما دمت لم أذق!

– وكيف نعرف ما لا يحسُّ ولا يُذاق ما دمت تُرجعين القياس إلى المحسوس وحده؟

– أتقصدين العقل؟ لا أثق بمعرفة العقل ولا بحكمه، أراه نسبيا ذي سقف؛ يتغيَّر بتغير الصروف والأعراض وما يستجد، ويقف أمام حدودٍ بعينها لا يتعدّاها، لا ثبوت له إلا إن ثبتت قطرات ماءٍ متداحةٍ في كأسٍ تحت سطوة شمسٍ قالية.

– إذن، فأنت ترين أن الأنفس لا تحفظ من زللٍ إلا إن عرفت وذاقت، ثم بنت على ذلك حكمها.

– هذا – في نظري– جوهر الزهد، أن تعفَّ – وأنت القادر– عن ما عرِفت.

– وما الذي تقتضيه المعرفة؟

– حيازةُ القياس.

– فما مناط الفتنة؟

– أن تُعرض عليك.

– فما النجاةُ منها؟

– أن تُعرِض.

_ وفيمَ إعراضُك؟

– لأنني عرفتها وتبيَّنتها وحدَّدتها، كما عمِد موسى – عليه السلام– إلى المعاينة بالاستبانة يوم طفق إلى الكريم من الأحجار يأخذها بيده، فما دفعه عنها إلا المراد الإلهي لآية.

– أواستبان موسى النار!

– فعلها لمّا أراد الله، والاستدلال بإتيان الفعل.

– فقربها.

– فعل.

– فاستبانها – على جذوتها وزهوتها– ثم أجفل لما وجد من أصل الحرق.

– هذا ما أقوله، عرف لمّا ذاق.

– وما فعل يوسف وما ذاق؟

– عُرض عليه فأحجم.

– وفيم إحجامه.

– عُصم.

– ولم ذاك.

– نبي.

– وفعل النبي منداحٌ على قومه ومن اتبع ما كان في نطاق بشريتهم: فارتضته الفطر، ولبّته الجوارح، وهدأت للنأي عنه القلوب.

– وعلام القياس؟

– لا قياس، أتقاسُ الفضيلة في ميزانٍ ولو كان ميزان ذهب! أيحسب التعفف بالقيراط! أم تُباع الأنفة بالدرهم والدينار!

– أفتمنعني الصفات عن التجربة والقياس؟

– مادام للعقل سقفٌ لا يتعداه فينحرف، وللمحسوسات خذلانها لمن يقيس لو ما استوت ظروف المعاينة، فللصفات الحاجبات المانعات قياسها.

– وتحجبني عن المعرفة الكاملة، لأبني عليها فأحكم وأختار؟

– محلُّ التخيير مرهونٌ ببذل الفارق، والفارق إن ما أبانه القياس جلّته النصوص، ليعضد النقل العقل، فيحصل الوفاق.

– فإن اقتربت لأجتلي!

– الشر معلومٌ يستبينه العقل، وتدركه الفطر، وأن تعرفيه بإدراك وجوده واجب، فتهجرين مظانّه: حكمةً منك واتقاء ما لا تطيقه بشريتك.

– فإن اقتربت!

– أو تضمنين عودا سالما لا يمسسك فيه شرر!

– لا أفعل.

– احترق من اقترب مما أدركه بعقله، وبلِّغ عن حدوده بنصه، وأبت صفاته عليه الوقوع فيه.

– أواه يا جدة.

– حماك الله من إعمال عقلٍ فيما لا يجزي فيه الإعمال، والوقوع فيما تنكره صفاتك وإن تنزّهت الأسباب!

عابرُ... ميناء !!

ثوبُه الجميل، ثوبُه الحريريُّ المقصَّب، لا أبهى ولا أكمل، حاكَه خيطاً خيطا، وحبكَ عقدَه عقدةً عقدة، تحسسه بيده مُتَّسعَ الأحداق ليلةً تلو ليلة، يتأكَّد من تمامِ رونقِه، وجلاء حرفته فيه، مقيماً الحُجَّةَ على نفسِه بالتَّفرُّد الذي لا يُرام؛ من يا تُرى يليق!! اندفاعُه الأول... أدخله في رأسه وأسبله عليه، تراجع خطواتٍ إلى الوراء، وقف يتأمل منبهراً بكمال قيافتِه عليه، يتبختَرُ أمامَه الاندفاعُ به، يتراقصُ الثوب عليه مزهوا؛ ياللكمال!!. يطير بثوبه فرحا، يُسبغ رضاءه على الاندفاع، حتى تلبَّسَ الاندفاعَ زهوُ الثوب، ما درى المسكين أنَّ الثوبَ صابغُه، لا أصلٌ فيه.

يختال ويُباهي، يزايدُ ويفاوض، وثوبه عنه ينحسر، مرةً، فمرةً، فمرة، يزداد انحسارُه، يوشك أن يسقط عن كاهليه، يتقزَّمُ الاندفاع.. وما درى، يُبالغُ في مساوماته، معوِّلاً على سابقِ رضىً طاولَه السما.. مسكين!! يُسارع بثوبه، يخلعُه برفق الكون، يحمله بعينيه، قبل أن يهبطَ إلى يديه. يتخلَّى الاندفاع عن الثوب طواعية، مظنَّةَ أنَّه الثوب، وأنَّ الثوبَ هو، يناوله لصاحبه بلا اكتراثٍ ظاهري.. مؤمِّلاً رجوعاً. يحملُ ثوبَه، يحتضنه، يبكي من ليس فيه، يوسُع من ليس فيه استجداءً.. أن يعود. يحزمُ أمرَه، يمسحُ دمعاً أراقَه على ثوبٍ بلا صاحب، يرحلُ مع ثوبِه يحملُه فيه... يلتقطُ الاندفاعَ الثاني. يتهافتُ ألقاً، يفرحُ حدَّ الامتلاء، يشكرُ نفسَه فيه أن هدتْهُ إلى اندفاعه، كاملاً كاملا، آلقاً ذاخراً كان، تماهي معه هوساً، تنفَّسَه، عاش فيه. ألبسه الثوب، أسدَلَهُ عليه، ما أكمله!!، ما أكمله!! احتضن نفسَه فيه، عاشَه، أقبلت عليه دنياه من كلِّ صوب، حازَ تمامَ الرضا. لم يدرِ لم احتضنه ذات يوم فوجد فيه عبقَ الاندفاعِ الأول، وجده فيه، فارتدَّ على نفسه مذهولا..

لِمَ الآن؟!!،

لِم !!!.

وجده عبقاً أشدَّ ما يكونُ العبق، أرَّقَه، أسهدَه، أصابته لوثةُ الثوب ولعنتُه، في لحظةِ جنون مشؤومة.. انتزعه انتزاعاً، انتزعه بكلِّ قوتِه، و اندفاعه الثاني مبهور الأنفاس، لا يكادُ يُبين. يُهرعُ بثوبه إلى اندفاعه الأول.. اندفاعه المنتصر، نصفُ انتصارٍ ربما، ولكنَّه في العُرفِ ..انتصار.

يُسدله عليه ويجلس يتأمَّل، يغرقُ في تأمُّلاته، يشدُّه الثوب، يُبهرُ أنفاسَه، يحتضنُ الثوب، يعيشُ معه، يَغُضُّ الطرف عن اندفاعٍ فيه.. وليس منه. يرقُبُ نحولاً، ذبولاً، يُلامسُ ثوبَه الأرض، عيناه الملهوفتان الجزعتان تراقبان، يغبرُّ الثوب، تهترئُ أطرافُه ، يكادُ يتحوَّلُ أمامَ عينيه أسمالاً مشوَّهة. يلهث، يزيدُ لهاثُه، يبتلع ريقَه بالكاد، يحتشد العرق على جبهته، يغمره، دقَّاتُ قلبه تزيد.. تزيد.. تزيد. مشلولا، فاقدَ الادراك، حيرانَ أسفا، يُراقب ثوبَ عمره يذوي أمامَ ناظريه، وما استطاعَ حراكا. يحزمُ أمره، يَستلُّ ثوبَه استلالا، بخفرٍ.. أو يكاد. يُهرع فيه على قارعةِ ميناءٍ... وينتظر.

وأنا أُفضِّلُ الأباتشي..!

كنتُ في سنتي الجامعيّةِ الأُولى إعدادي هندسة، وكان من ضمن المساقات الإلزامية على جميع كليّات الجامعة الإسلامية التي تخرّجتُ فيها مساق : الإسعافات الأوليّة.

المساق كان مثرياً بحق، يُؤخذ على محاملِ الجد ولابد، ككلِّ مساقاتِ الجامعةِ الموافقة لنهجها المعروف.

وكان أستاذا المساق طبيبين أشهرين، وعلمين ألمعيين، وقد شاءَ القدير أن أُسجَّل مساقي ذاك في شعبة أحدهما، وهو د. محمود_الزّهار.

الرجلُ كان – على شهرته السياسيّة – من رجالاتِ الله في أرضه، أحسبه كذلك ولا أزكّيه على الله.

كان – *حفظه الله*– غزيرَ علمٍ، خفيفَ ظلٍّ، ألمعياً أبينا ، ينقلُ خطاهُ متثاقلاً وقد أُثقلت كواهله بسني اعتقال وآثار تعذيبٍ طال من يهودٍ و... ذوي قربى.

أذكرُ مثلاً أنّه سأل في احدى محاضراته سؤالاً تخصصيّاً، فأجبتُ مستخدمةً مصطلحاً طبيّاً حكراً على أهل الاختصاص، فنظر إليّ متبسّماً وعيناه تضحكان وقال: أنت متأكدة أنك تدرسين الهندسة يا ابنتي!!.

أمّا طبيبنا الآخر، والذي كان يدرِّسُ نفسَ المساق لشعبةٍ أُخرى، فقد كان اسمُه وحدُه كفيلاً باثارة غيظي وحنقي على إدارة الجامعة أن كيف جمعت بين هذين هذين –وهما من هما – لتدريس المساق ذاته، وعمدت إلى توزيعهما على شعبتين اثنتين ، فلو استقدمت أحدهما دون الآخر لكان أهون وأخفّ وطءا.

أما والحالُ هكذا، فقد آليتُ على نفسي أن أجمعَ بين محاضرتي رفيقي الإبعاد – إلى مرج الزهور– والجهاد.. وإن شاقني رهقاً.

كنتُ ما أن ينطقُ د. محمود بآخر حرف ململماً أوراقه مغادرا، حتى أنطلقَ كما البرق من مبنى القدس، إلى مبنى طيبة –الذي كان في الطرف الآخر البعيد – حيثُ محاضرتُه وقد مضى عليها العشر دقائق.

أدخل القاعةَ الفسيحة وقد ران على أهلها صمتُ الإجلال، وورعُ التزوّد، فألزمُ أوّلَ مقعدٍ أصادفه وعيناي أسيرتا المنصّة، حيثُ يتهادى هو أسدا، صوته يملأُ جنبات القاعة بحروفٍ ناصعة، ومخارج أثيلة، عينان برّاقتان تبسمان حنوًّا ظاهرًا وخطوًا واثقًا، وهيبةً ليست كالهيبة.

تشخصُ إليه الأفئدةُ قبل العيون: يبسم فنبسم، يقطّبُ فنفعل، يضحك مازحاً، فتضحك أرواحنا معه.

موسوعيّته، خفّةُ ظلّه، يقينُه،ثباته، هيبته، حنوُّ الأب، وعينُ القائد الكالئة، وروح الأمير الملهم.

تخيل أن يجتمعَ كلُّ ألقٍ في شخصِ رجلٍ واحد، وأنّ هذا الشخص بالذات تناظره عيناك فما تدري أزمن الخلافة الراشدة عاد، أم هي نفحاتُ عصرِ عزٍّ وأمجاد!

أذكرُ مرةً كان يحدّثنا فيها عن فدائيي الانتفاضة الأولى، وعن عمليات الطعن والذبح التي كانت أقرب للاعتيادية، وعن طريقة الذّبح السليمة والمؤدية الى الموت الفوري فلا يفلت منها اليهودي، ولا تجدي معها كل طرائق الإسعافات التي برع يهود فيها، كذاك أماكن الطعنات النافذة المفضية الى الموت الأكيد..!

نعم، ومن غيرُه ، أسدنا المترعُ ثباتاً وثقةً ويقيناً، المستبسلُ أبدا بخياره وخيارنا، من اختارَ الأباتشي عزّا على سكتةٍ قلبية أو موتة سرير. نذكره في زمنٍ عزت فيه الرجال، والتاعت الأرواح بحثاً عن ترياقٍ يسري فيها فيستفزها من أرضها التي إليها ركنت، مع كل الخبث الذي يحوطها –يكاد يزهقها– وأشباه الرجال اللذين ساموا أرواحنا رهقا، فأطالوا علينا أمد النصر الذي نوقن به، علَّنا نعي أن كان فينا – وفي يومٍ قريب– من قايض سقط المتاع بوعد الآخرة، ما تنكّف لأمته ولا آثر عليها، وباعها رخيصةً يوم انبرى سقط الخلق يجادلون في مسلّمات ويشكّكون في بديهيات، سقطوا وهم على قيد حياة.. وأفضى هو إلى ما قدّم...!

عبد العزيز الرنتيسي .. إلى جنان الخلد.

غريب

ذاهلاً عمّا حولَه، غارقاً في لُجَجِ أفكاره، عينان زائغتان لا تريان، يدان إلى جانبيه تتطوحان دونما إرادةٍ منه، تقودُه خطاه حيثُ لا يدري. تتشابه أمام ناظريه الأرصفة، الأماكن، والوجوه... يسيرُ، ويسير، تلفحُ وجهَه نسماتٌ ليليّةٌ باردة في بلدٍ كلُّ شيئٍ فيه غريبٌ، معادٍ، ومتباعد... يطلقُ زفراتٍ حرّى يقطعنَ نياط القلب، يتلفّتُ حولَه، يتلمّسُ بعينيه أيَّ مشهدٍ مألوف يَزيحُ رِزءَ همومِه، يستنجدُ من حولهَ بلسانٍ أبكم، يتسارعُ نبضُه، يلهث، ويلهث، تدورُ عيناه في محجريهما، يدورُ حولَ نفسِه، يتطوّحُ يميناً ويسارا كما السُكارى، يتهاوى على ركبتيه، تتخلى عنه أطرافُه، رأسُه، يتهاوى كلُّ شيئٍ فيه، تتسرّبُ منه إرادتُه كما النّزف... كما الإحتضار. ربتاتٌ حانيات على ظهره، ولسانٌ أعجمي يتساءلُ بلهفٍ أن : خيراً، ما بك؟ !! ترفضُ رأسُه الإنصياعَ للَهَفِ السؤال، يجثو الغريبُ أمامَه مصرّاً : ما بك؟!! إلحاحٌ غريب، في بلدٍ جافٍ، لا يقيمُ وزناً لحاجة إنسان إلى أخيه الإنسان. يرفعُ رأسَه – متجاوباً– رويداً رويدا، بعينيه الجامدتين الذاهلتين ينظرُه، تصافحُ عيناهُ عينين وادعتين، إبتسامةً حنوناً رقراقة، سمتاً حلواً تحتضنه لحيةٌ كثّةٌ جميلة، غدائرُ شعرٍ مرسلات، و مظهراً عاماً لا تخطئه فطرتُه.

تتسعُ عيناه، يلهثُ بها دونَ وعيٍ ولا إدراك : مسلم ؟!!

تتهلّلُ إبتسامةُ الغريب : نعم أخي.

يلهجُ بها : أحتاجُك !!

يجيبُ الأخ – الذي لم يعد غريباً– : جُعِلتُ فداءَك.

أحوالهن معهم

1- أحوالهن معهم:

هو ما رآها قط، ولا أُترعت عيناه بصورةٍ لها على هيئة البشر؛ يأرز إليها إذا ما ضامه الشوق، وأمدَّه التحنانُ بكؤوس التصبُّر والرضا، ولا اشتمَّ لها ريحاً تسبغ طرقَ فؤاده الممهدة لتسلك روحه مسالك رياح الصبا، ولا اكترى من لبناتِ مشيتها وصالاً يُعلي بها صرح آماله العراض، كلُّ ما استيقنته منه الروح أنه هام بها حدَّ التدلُّه ما أن أتته أخبارها، فكان يرسل سمعه يتحسس، ويستثير القومَ كيما من فتون حرفها يمدُّونه، فتتمثل له في خاطره كما شاء له الهوى، وإذ بما احترز من شطحات الخيال تنضوي تحت جناح التواضع لا تلوي، فما أن استبد به ما كان حتى أرسل في استيفاء ما قُدِّر، لتنبئه اللحاظ أنَّ ما كان من سالف هيامه ليس إلا خاطراً عابرا، وأنَّ قابل أيامه معها لهو طاقةٌ فتحت له على نعيم الآخرة!

2- أحوالهن معهم:

وهبي أنني تركتُ ورائي نوحَ اللوائح وهذرَ المحال، ويمَّمتُ شطرك في البلاد الغريبة أغزلُ من موج القطيعة عباءةَ وصلٍ تكلِّلُ هامةً من خيال، ولحقتُ وخلفي مواكب نورٍ بالبعث المؤمَّل و الجديد، ولستُ يا نضارةَ عمري يوماً عن ذا القرار أحيد = أكنتِ يا هدلَ الحمائم تسمحين! وعلى أبواب أقداري الحزينة تزدهين! أكنتُ عييَّاً و بيني وبينك عقباتٌ كؤود، ومعاولُ جَهدي من سقمٍ يجتاحها الصدى والجمود، وفي خافقي حريق روما يشظِّي اللهفاتِ ويرضاه القعود! أنا احتباسُ العمر أرداني وجلَّلني السخام، وزهرةُ النار تسحق معانيَّ التي أجَّجت فيَّ الضرام، أنا يا رديفة أحلامي ما عدتُ أملكه القرار، وأحمقُ العثرات يرسمه الطريق، وعلى حدود اليأس أرسى دعائمَه البوار. أيُّ الوصال يا كرمتي يلوح، وكلُّ من أهواه ودَّعني على هذي السفوح، فدعيني يا من هويت من قبل الوداع أروح!

3- أحوالهن معهم:

كان عليها أن تدقق النظر جيدا، ترتشفه بناظريها ارتشافاً كأنه ثمالةُ كأس الحياة ، تذهب المدى لتستحلَّ كلَّ التفاصيل التي صاغتها وأضحت عطرها الأوحد، التفاصيل التي أهدتها الجنةَ يوما. وهو ينقل خطاه الهوينا لتتصاعد ذرات الغبار إثر كل قبلة يطبعها بقدمه على خد الأرض، وتغبطها هي كأنها من فرط هيامها – ذرات الغبار– انتشت فاعتلت مع سكرةٍ ضجت بها، فما طاقت ركوناً إلى أمها الأرض، تلتوي حقداً عليها: كيف لي أن لا أكون مكانها هناك تحت قدميه!!، فتنفث غضبتها ناراً وتبلع ريقها بتصبُّر، وتبعد عينيها قسراً عن الذرات العابثات، لتواصل رحلة اختزانه.

تحوطها النسوة = يحاولن جهدهن التربيت على مظنة فقد، ما أسخفهن! تتفلَّتُ من حصارهن الأبله: دعوني وشأني فرحلتي لم تبدأ بعد. صعوداً إلى عينيه، مهمةٌ شاقةٌ محببة، عليَّ أن أتجلد، لا وقت لهراء التداعي وسخافات البكاء. بعينيها تحفر أخدوداً عميقا على وجهه الذي هو لها، لتبدأ عملية النقش بطيئة ومتأنية. يتابع هو خطوَ عينيها ويفهم، لترتسم على شفتيه ابتسامة متمهِّلة، يمنحها إياها ببذخٍ كأنه يملك كل الوقت الذي في الدنيا، تأخذ ابتسامته وقتها ارتساماً في العينين لتبرق بها أسارير وجهه على مهل، كأنه على وقع عينيها يرتشفُ فنجان قهوته الأثيرة على كتف البحرة وهو يناجي الياسمين في أعطافها، يسعى جهده ليمنحها مجالاً للرصد أبهى وأكمل: انظريني! فلا تأبه هي بكل محاولاته لاستدرار ما ستقضي بقية عمرها تؤديه بكفاءةٍ تامة، تتجاهل كل نجوىً تصدح بها ملامحه، لتستمر في نقش مؤونة العمر على تعاريج ذاكرتها.

خطوات معدودات لترتفع قامته بكل تلقائية الكون– مخلوقٌ للشموخ– ينتصب مزهواً كما كل قامات النخيل في بلاده لتسمع جارتها العجوز تفحُّ بقرب أذنها : إيه، يا خسارة الشباب، ليتهم قسَّموا. تزوي ما بين حاجبيها بتأففٍ ساخط : ليتك تلقمين حجراً يا نعيب البوم!

تعود لمهمة النقش الأثيرة، الأفعى الآن حول جذع السنديانة تلتوي، فتتسارع الأنفاس وتكتم الشهقات بكثير عسر: اصمدي، لا وقت لكل هذا الهراء الذي تمتلكين له العمر، فاصمدي الآن، الآن فقط. تضع يدها على حجاب وجهها لترفعه وتستعد، فيرمقها بنظرة كاسحة تكاد غضبتها تهوي على وجهها فتصفعه، ليتهلل وجهها وتمنحه آخر ابتساماتها.

تتشبَّث الأفعى بجذع السنديانة – أرجوحتها الحبيبة– وتحكم حولها الخناق، وتسمع طرقعة يرتخي لها الجسد دفعة واحدة، كأنه يستعجل الرحيل إلى حيث أتى، عندها .. تتصاعد أنفاسها وترتج في صدرها كل الشهقات المختبئة، لترفع يداً نحو فيها مرتجة.. وتزغرد!

(لا بارك اللهُ في الدنيا إذا انقطعت أسبابُ دنياكَ من أسباب دنيانا...)

4- أحوالهن معهم:

يردّ عميم، زخمٌ يكاد يهتك كل أستار دفاعاتي، لم أشهد لموجة البرد هذه مثيلا وأنا ابن الجبل، الأمر يبدو كأن البلد تنفث غضبتها حمماً قارسة في وجوهنا كلنا، يا لله! كل قوقعتي على ذاتي لا تزيدني إلا مزيد ارتجافٍ يكاد يخلع أوصالي، وومضة النار في بقايا رمادي تبدو حلماً بعيد المنال. يقضمني الملال، وكل ما حولي ساكن لا يحمل شبهة التربُّص، كأنه التنهيدة الأخيرة في صدر الوجود. أتلفّت حولي علِّي أنتزع من الرفاق جمرةً منسية تحرِّك سواكني، فلا أجد إلا أبخرة الخواء تنزُّ من شفاهٍ زرق!

حافلةٌ مخبولة يقودها مخبول تقترب، أسمع دحرجة العجلات وأرى فأكذِّب عيني: هيا اقترب!

أنتزع ما تبقى لي من قدمين ما تأمّلت لهما حراكا، وينتصب جبل الجليد فيّ، أمضي أبحث بعيني عن رفيقة دربي الناعسة بجواري وألتقطها، أطمئن على التقامها، ثم أمضي إلى غنيمتي!

البوط العسكري الثقيل يدفعني إلى الأمام دفعاً حيث الحاجز، أقف معترضاً مسار الحافلة، وبعيني أنادي الرفاق، لتبدأ مرحلة التململ والتي يعقبها: احصل على غنيمتك لوحدك، إنا قاعدون!

أمط شفاهي وأهز كتفاً تحمل الرفيقة التي لا تفارق، وأزيد في احتضانها :أنا وأنت ولا أحد سوانا!

أمدُّ كفاً تغرق في قفازها الصوفي، لأسمع صوت المكابح ، وتلتقط أذني المدربة صوتاً خفيَّاً مُلازماً لها اسميه صوت الرعب: حاجزٌ وخاكيٌّ وحافلة!

أدفع الباب بيدٍ حازمة، وفي الأخرى أشهر الرفيقة، أقلِّبُ بعيني في الوجوه: كالحةٌ على شفا موت، أسمع زعيق الرعب على وجوههم، وحلوقٌ تجمد فيها ريقها!

أدفع بجسدي إلى الداخل، ألوِّحُ للسائق فيهرع إليّ من فوره، وبمزيد تلويح يمضي يجمع من ركابه بطاقات الهوية: يحفظُ الدرس!

وجوهٌ تنزفُ الرعب، وعيناي تجوسان خلالهم كلهم، تنثر مزيداً ومزيداً منه، لا تذر منهم أحداً ولا أراهم في آن، ليأتيني السائق بحصيلته، أمدُّ يداً عجولة، لأتفحصها واحدةً واحدة، أُرهف سمعي: قلوبٌ تُخلع من صدورها لتتواثب أمام عيني في ممر الحافلة!

البطاقة الأولى، تتدحرج عيني على خانة الديانة فالمذهب، أنادي الاسم وما من مجيب، أرفع عيني– المدربة – لتختار أشدهم زرقة موت على وجهٍ مطابق لما على البطاقة بين يدي، لأشير بعيني إلى السائق، ليقوم من فوره –كمن يتعجل الخلاص من مهمةٍ مقيتة– ليقود صاحبها – الهوية – خارج الحافلة!
أتابع تقليب البطاقات، ويتتالى الزرق نزولا، ثم أراها!

كيف لم ألحظها، يا لله! كيف لم أفعل!! ينصهر الجليد في أوردتي رويداً رويدا، وعيناي تغزوان صورتها، أنتبه: هي هنا، لأرفع عينين ملهوفتين تتصفّحان الوجوه: هي هنا!
يا إله السماوات! تلتصق عيناي بها: وجدتها، يرتجُّ صدري بأنفاسٍ محمومات ظنها قد هجرته بلا رجعة، ليذوب الجليد دفعة واحدة!
العينان الحارقتان تتحولان إلى حمامتين وادعتين ترفرفان على وجهها الملتاع: أوه، أرجوك لا تخافي!
ابتسامةٌ تقرر شقَّ طريقها نحتاً على وجه الصخر: أرجوك لا تخافي!
يدان تتشبثان برفيقةٍ كادت تصبح طرفاً زائدا، الآن هما ترتجفان، لأُزيح الرفيقة خلف ظهري، وأرفع أصابعي تداعبان خصلةً ضلت طريقها على وجهي: أرجوك، لا تخافي!
أقترب بخطىً اعتادت الهدر، فتجفل، لأتراجع خطواتٍ إلى الوراء: أرجوك، لا تخافي!
تنهيدةٌ تقذف الحمم ينفثها صدري لتروح عيناي تغادران إلى بطاقة هويتها: لن تخافني صورتها!
نصفُ ابتسامةٍ تداعب شفتيّ: يا لله! لتهوي – بعد طول تأجيل– حيث الخانة الفيصل!
تراجعٌ بطيء، ابتسامتي تغيم عن عيني أولا، ولازال نقشها على الشغتين لم يبرحهما: يا لله!

أبلع ريقاً تلظَّى في أحشائي، وأعيد النظرة إلى الخانة فإليها، الخانة فإليها: يا لله!

أتقدَّم منها وقد حزمت أمري، أغرس نظرتي في العينين الراجفتين، في وجهها الحبيب، أجول بعيني كأنما أتحسس نابضها، أتشبث في تلابيب ذاكرتي: ابذلي وسعك، تناجيها عيناي: أرجوك لا تخافي، أزدري ما تبقى لي من ريق، أُلصق الفوهة الباردة، أُغمض عيني.. و أُطلق النار!

#بيروت_1982

5- أحوالهن معهم:

لم أكن أعرفه أبدا، ولا عُرِّف لي يوما: غريرةٌ أوت إلى خدر صباها، ولكنني فقهت أسراره كلَّها دفعةً واحدة مذ قُدِّر لي! يومها كان حفل زفاف ابن حارتنا على صاحبةٍ لي أثيرة، كنت أعدُّها أختاً حتى جاء من يشغلها ويأخذ بمجامع لُبِّها فنُسِّيت وتناست، وعدَّته – من بعد فاتحة الكتاب– كل أهلها.

أذكر نقمتي عليه، وفضولي الذي أكل على موائدي وشرب لأعرف ذاك الذي حرمني الرفيقة، واستأثر بها دونًا عنّا من بعد أن استلب بكلمة الله ما لا يُرَدُّ ولا يُبدَّل.

يومها اعتليت مع صويحباتي السطح وجعلنا نراقب ضاحكاتٍ لاهيات مراسم العرس، وعريسنا المبجّل منتصبٌ على خيلٍ مطهَّمةٍ تدور به بخطىً راقصة، وعباءته من خلفه تداعبها أنسامُ ليلةٍ نيسانيةٍ مقمرة، والأريج تتناقله النسائم العابثات، ليسكن أردان كل من حضر، حتى لبنات الدور من فرحٍ يضجُّ بها تكاد من مكانها تنخلع، وأصوات الزغاريد كأنها إيقاعُ الحياة: تشقُّ المدى مصهللةً لتتزاحم كلُّ الوتريات تنصت!

نتدافع حيناً ونتخفَّى وراء ظهور بعضنا البعض حيناً مظنةَ عيونٍ قد تسترق، تشقشق الفرحة في عيوننا فنصفق لها، لا شَغلنا ولا شُغلنا، يُفرحنا القليل كأنما حيزت لنا الأرض، ولا نسأل عمَّ إن يبد لنا أرّقنا.

حتى إذا ما تنادى شباب بلدتي إلى حلقة الدبكة أخذت كل منا تنازع الأخرى على موضع القدم، لنتحلَّق تحلُّق طيور الدوح على غصنٍ لها وأعشاش، فإذا اكتمل تراصُّ الصف، وبدأت الأهازيج التي نحفظها عن ظهر قلب، وتبادل المخاتير الردات، وتعالت دقَّات أقدام الشباب على الأرض تهدر: واحنا شبابك فلسطين والنِّعم والنعمتين =حتى كانت قد بلغت بنا السكرة مبلغها، فدارت لها الرؤوس، وجعلنا نصفق ونتقافز متواريات خلفَ حجب القمر، وحده يعرف أسرارنا.. ويسترنا!

ولا أدري للحظتي هذه كيف حانت مني التفاتةٌ نزعتني من سكرتي لأراه من بين الشباب المنهمكين بتأدية الرقصة الأروع، وقد أرسل إليَّ برسول نظرته الأولى ما ثنّاها، كيف انتقاني أنا من بين صحبتي، كيف تعثرت خطواته الواثقات فاختل عقد اجتماع صحبته، بل

كيف تحولت خطواته المتعثرة إلى استعراضٍ مبهرٍ لشبوبيته أنَّت له الأرض من تحت أقدامه، كيف فعل! .. لست أدري، ولكنني أذكر كيف خلع كوفيَّته وجعل يلوِّح بها بكل ما أوتي من قوةٍ وعنفوان، يدور حول الصفوف ويشقّها بخطواته ويتهادى بها، يتعالى بقامته ليتصاغر أمامه الكرمل، وبأكتافه يكتمل الحلم!

هؤلاء الرجال! أطفالٌ هم، إذا ما غضبوا دقُّوا الأرض بكعوب العصيان، وإذا ما فرحوا دقُّوها وما وهنوا. يومها أدركت، باعثٌ خفيٌّ سامرني أنني أنا التي من أجلها ازدهت حلقة الرقص بدقات كعبيه، وهدر أقدامه، كل هذا الاستعراض الصاخب كان من أجلي، حتى الكوفية التي تقاذفتها يداه كانت علامة أنني المختارة!

وقد كان، وُهبتُ الحياة له، وإليه سكنت فنُسِّيت وتناسيت! شغفُ الحياة معه فقهته، وغدوت به أكمل، حتى الكدرات وطّدت لنا سلم الوصال؛ ارتقيناها معا يداً بيد!

أذكره على فراش الموت يتمتم: مريمتي، اقتربي يا مريمتي، دعيني أشمُّ فيك رائحة البلاد.

لأهمس له: أنتَ البلاد يا حاج!

6- أحوالهن معهم

ربما كان لزجاج نافذتي وستارتها القشيبة رواية قصتي هذه على الوجه الأكمل والأدق: تزيح عني مغبة قصورٍ أو مظنة مبالغة، كيف لا وهي التي شهدتها – قصتي- وليدةً وعلمت عني وحالي ما لم أكن أنا حينها أعلم!

ألم يصطبغ زجاجها بلون أصابعي التي أوت إلى ركنها كما حمامةٍ وادعةٍ إلى أمِّها الأيكة تأوي! أما حفظتْ عني عهودَ وصلٍ تمتمت فيها شفاهٌ آيسة! كم من مرةٍ رسمت بأنفاسي على صفحتها خرائط أحلامٍ وبنيت أعشاشاً أعددت فيها المتَّكأ وفرشت النمارق! كم من مرةٍ تواريت خلف ستائرها بكليَّتي، وتركتُ عينين مسبلتين هناك من خفرٍ تجوسان ستر الغيب.. وتدعوان!

كانت بداية قصتي التي نُسجت حول مغزلها قادم سني عمري كلِّه يوم أن أتانا أخي من الجبهة: معي ضيف، أعدي لنا قهوتك فضلا. يومها أسرعت باعداد فنجانيين وأضفت لمستي التي اعتدتها: طبق من عروق الياسمين. وشغلت ببعض أمري حتى أتاني أخي بالصينية عليها فنجانيها وأحدهما مملوءٌ إلى حافته.. كما كان!

يومها قطبت حاجبي وسألته بتبرم: لمَ لم تشربه!!، ليهزَّ كتفيه عائداً إلى ضيفه: أنا من شرب.

وكأنه صبّ على ناري زيتاً، وأنا التي اشتهرت بقهوتي في العائلة بأسرها، فباتوا يسمونها باسمي إذا ما عنّ لهم التلذذ برشفاتٍ تأخذ باللب، وحانت مني التفاتةٌ إلى صينية التقديم لأجد طبق عروق الياسمين خالي الوفاض منها، لأسرع بخطىً مغضبة إلى النافذة أرى هذا الذي ما استهوته قهوتي أنا!

يومها أزحت الستار وتواريت خلفه، ثم مددتُ بصري علِّي أرى هذا الوقح الذي جرؤ، فكان أن اصطدمت عيناي أول ما اصطدمتا بحذاءٍ عسكريٍّ ثقيل ويدين تلوحان تشرحان أمراً ما، وأخي أمامهما ذاهلٌ بكل جوارحه ينصت، أعدت دفة عيني إلى الوقح الذي جرؤ على رفض قهوتي، وهممت برفعهما إنشات قليلة .. فمُنعتا ولبثتا عند حدود اليدين لا تبرحهما!

ما الذي جرى! لست أدري، فقط جعلت أتأمل عروق الياسمين بين يديه، ينقلها من كفٍّ إلى الأخرى، ويداعب بتلاتها كأنها ماسٌ ثمين يخشى عليه الخدش! يومها – ولأول مرة– تمطَّى قطيَّ الناعس أبداً بجوار البحرة وتهادى بمشيته المختالة، أرقبه لأجده – لدهشتي العارمة– يلقي بكتلته الناعمة المدللة تحت قدميه، ليدفع الغريب بالياسمينات إلى جيبه، ويأخذه بكلتا يديه يداعبه ويلاعبه، وقطيَ الخائن يزوم متكاسلاً ويقرقر بكل هناءةٍ ورضاء اختصني بهما أنا، لوحدي أنا!

أما وقد اجتمعت على الغريب من غضبتي الأسباب، فقد وجدت متنفسي مع زياراته المتتالية بتعهد النافذة المطلة على (أرض الديار) بمزيد تلميعٍ وتنظيف، أخصُّ أركانها وأولي زجاجها اهتمامي، حتى غدت لامعةً صقيلة كأنها الهواء!

ومع كل مرةٍ يوصيني فيها أخي باعداد الشاي للضيف، مع فنجان قهوته هو، أدَّعي أنا الصمم لأعد الفنجانين أملأهما بالصهباء، أعدّها على نار التصبر وأمزجها بابتهالات الياسمين على الطبق المعهود، ليعاتبني أخي: لا يشرب القهوة، لأجيبه متوسلة: لربما يفعل هذه المرة، ليعود إليَّ كل مرةٍ وقد نقص فنجانه رشفةً أو رشفتين، وتهاجر عروق الياسمين إلى جيبه آمنةً مطمئنة، فكنت ألتقط فنجانه أتأمله دهرا، ثم أفرغه في جوفي على مهل، ثم أغسله برفقٍ وتأني، وبمكانٍ قصيٍّ عن الأعين أحفظه!

ولم أرفع عينيّ إليه قط، لم أفعلها أبدا، رغم أنّ بعض إنشاتٍ كانت كافيةً لإرواء ما أجد، ولكنني لم أفعل، وكأنني حُفظت، وكأنه حُفظ ! وجعلت أرسم له في مخيلتي شكلا، وجعلت أنتقي له من الأسماء اسما – وما كنت أعرف عنه غير كنيته– وشغلت بالوافد الغريب كأنني عرفته العمر كله، فلطالما لجأت إلى مخيلتي أنسج حواراً بيننا يطول فلا أملُّ أبدا، وأستسقي من نبع خيالاتي المزيد، ثم أضفي على صوته اللكنةَ والنبرة، فيعلو ويهدر، ثم يخفت ويتهدّج، وأنا على كل الأحوال إلى معين صوته أرِد!

حتى قطيَ الجسور غبطته، أو – ولأكن صادقة– وددت لو قتلته لضيق صدري واعتلال مزاجي، فكيف يتفرد هو – وهو الأعجم– بما لم أخبر، حتى إذا ما هامني احتضنته، وجعلت أنادي فيه من سبقني إليه، وجعلت – لذلك – إلى ربي دعاءً يتهدج به لساني في كل حين، يتحرّى للاستجابة أوقاتها، ومن الليل أتهجد!

والزيارات مازالت، وعيناي ما رُفعتا ولا إنشا، والكفان مازالتا تلوحان، وأخي مازال بكليَّته ينصت، ويزيد أن يصرَّ على أمي أن تذكره– الغريب – في دعائها بالاسم، ذاكراً مناقبه، مثنياً عليه: فهو في نظره الصاحبُ الرشيد، والخلُّ الفريد!

حتى جاءني يوماً والفنجانان كلاهما فارغان، حتى ثمالتهما فارغان، وعلى طبق الياسمين ترفل الياسمينات كلها، لتبسم عيناه وتتهلل بالبشر – كلُّ البشر– أساريره : أختي، حبيبتي، يطلبك للزواج فلان – يعني الغريب– الذي أمسى جنة أرضي وفراديس السماء!

خيَّا

1- خيَّا

عندي عمَّان: شقيقا أبي، أحدهما -وهو الأصغر- مصارعٌ جلد، قوي البنية متينها، عظيم القبضة شديدها، لا تفلت منه حلبة إلا وتجندل أمامه منافسه يتشحط، وهو رامٍ ماهر، حبَّاه الله عين صقر، يقيس المسافة ويوازن ثم يضرب أو يقنص؛ حسبما توفر له: مقلاعًا أو حجرا أو بندقية، مرن الحركة سريعها، تشهد له كل المتاريس التي وضعت لتشل المخيم وتقطع أوصاله، فاتخذها لهوا ولعبا، يقفز من فوقها كأنها وضعت خصيصا لتسليته الخاصة، فإذا ما تجاوزها نفض كفيه من غبار وهمي، وضبط شعره، ثم مضى كأن شيئًا لم يكن. يحفظ مداخل ومخارج المخيم ككف يده، مسطور في مخيلته كل منفذ، واضعٌ في حسبانه باب الجار الخلفي، والأمهات المتمترسات على كل باب، يحضرن الحجة لإعاقة ما يفسد عليه تسلسلية النفاذ! ذو شخصيةٍ كاسحة، ووجهٍ قدَّ من صخر، لا تفارق الكوفية جيده، فإن اقتضى الأمر اعتلت نصف وجهه حتى لا تظهر منه إلا عيناه =اللتان إذا ما ضاقتا وقدحتا فترقب الويل، وهو على ذلك إذا ما لانت منه الشفاه هطل الصيب، ثم أيقنت بالإجابة! يحبه الغلمان ويهابونه في آن، إذا ما خطا في المخيم أفسحوا الساحات لمروره، وإذا ما شاركهم اللعب ملاطفا، وقفوا هنيهات مذهولين، ثم لم يلبثوا إلا أن يتطايروا حوله فرحين مشدوهين. ويلتفُّ حوله الرفاق، فذا يطلب رضاه، وذا يؤيده مطلقا، ولا يكاد مجلس الدار ينفض من تجمعاتهم، ولا نار الدار تهدأ ولا أباريقها. اعتادت الجيرة على صرير الباب فتحًا وانغلاقا في عتمة الليل: ملثمٌ يروح وآخر يجيئ، واعتادوا معها على المداهمات التي لا تستأذن، والتي لا تأتي بشيئ، غير كسر باب الدار مرارا وتكرارا، والكثير الكثير من البعثرة والتهشيم، ووقفة جدتي الواضعة كفيها على خاصرتيها أبدا: وين يا خواجة !! مفش حد.

حدثتنا جدتي فقالت: عندما كان(ثائر) صغيرا، كان يعمد إلى قن الدجاج وهو يتلفت، يحسب أن لم يره أحد، فإذا أمن، أخذ بقلمه يكتب على بيضةٍ انتزعها من مرقدها، وكتب عليها اسم(فتح)، ثم راح يتصايح ويتقافز: انظروا، حتى البيضة عليها اسم ال (فتح)!

2- خيًّا:

أما عمّي الثاني فما كنت لأنسى له ما حييت أنه كان مرشدي الذي جاس بي عبر عالمٍ جديدٍ ومختلف عن العوالم التي عهدتها ودرجت عليها، عالمٌ ولجته لأول مرة بعد أن فتح لي هو مصراعيه على الوسع: كتبٌ تجدها في كل مكان حولك، تمد عليك رأسها من فوق الجدار، وتتثال إذا فتحت صنبور الماء لتغرقك =كتبٌ حال لون أوراقها، واهترأت أغلفتها، وبقي لسانها يدور، كأنما خبرت التداول بين الأيدي واستعانت عليه بالثرثرة، وكتبٌ أخرى صقيلٌ حدها كالسيف يستفز دم أصابعك، تهديك شرنقتها الأولى لتبهر عينيك بنصوعها، ولكنها بكماء، تروح عيناك وتجيئ تستجدي الفهم، فتجود عليك به بعد لأواء، وتضن بالمزيد! غير أنها كلها يجمعها ذات الوسم المدبوغ على جلدها: منجل ومعول يتقاطعان!! هنالك رأيت ماركس ولينين، وسمعت كاتيوشا وكالينكا، وشممت رائحة الفراء العطن، وتهشمت على رأسي تجمدات الفولغا في منتصف آب! أذكر أول مرة شاهدت فيها فيلم عمر المختار معه، وكنت لم أتجاوز عامي الخامس بعد، يستلقي بجانبي ويستطرد شارحًا كل تفصيلة يعززها بالمقارنات والتمثيل والكثير من عفلق وعروبيته، وجيفارا وعالمية دعوته. بل وإنني أذكر مشاهد بعينها تنهنهت لها حتى العظم، ليرتبط عندي المختار ببكائيات لا تنتهي! وهو مع تعطشه ذاك لكل حرف يكتب، متعدد اللغات: يرطن العبرية كأنها لغته الأم، وتتناثر الفرنسية بين لجج كلامه بدون حول منه ولا سابق قصد، قوي الذاكرة: يدعم حجته بالبرهان الموثق والدليل، حاد الذكاء: يقيس ويربط فيستنتج ويبني، مجادلٌ مجهزٌ وشرس: تلين له أعتى ساحات النقاش، إذا ما برقت عيناه فاعلم أنه أتاك من مأمنك، لا يُقاد أو يُستدرج، بل يفعلها هو بكل حنكةٍ ودراية، حتى لكأن خطط الخصم تجلت في ذهنه مع النحنحة الأولى، لوذعيٌّ ساخر: إستفزازه محال، وفكاهيٌّ طروب: جمع حوله القلوب، فلانت العقول. وكانت له عصبته الخاصة التي تلتف حوله، تراهم فتحسبهم إخوة الكهف، عاليهم سمت الثوريِّ الذي اصطنعته القضية لنفسها، فباتت معالمها تشق طريقها على تضاريسه، بعد أن وهبها عصارة الروح، ليغدو هو من أحد أهم القيادات المنظِّرة والتعبئية في مرحلةٍ معلومة من مراحل تدرج القضية وهو لم يتعد ربع القرن من عمره بعد!

3- خبَّا:

للحق: دار الجد كانت أشبه بخليةٍ ثوريةٍ عجائبية لا تهدأ؛ يختلف إليها فدائيو التنظيم العامل والأبرز في ذلك الحين، مع منتسبي الفكر الاشتراكي التنظيريين، كلٌّ يحمل عتاده، لتنوء ساحة الدار بما في جوفها، لا تلفظه وإن استنطقت! وكأيِّ بيتٍ فلسطيني تحزَّب كل من فيه، واعتنق من الفكر المقاوم ما عنّ له، فاتسم به وأضحى له طابعا =غدت حكايات العمل الثوري إطار المنظومة الشعبية كلها، والحاضنة لها، كأنها الخبز الذي لا فطام عنه. وكان ما ليس منه بد، واعتقل الشقيقان في مداهمتين متتاليتين، كأن اختلافهما الحزبي عاد فوحدهما في زنازين محتلٍ واحد، بعد أن فرقهما في مجلس الأب الواحد. وكان على الجدة أن تتلو وردا آخر اختزنته لوقته المحتوم، وأن تسيح في منافي الأرض خلف ابنيها تطلب أخبارهما، لتبدأ قصة نضالها الخاصة في مسلسل النضال الذي بدأته مهاجرةً على كتف أبيها، وأنهته ككل فلسطينية: تستقبل ابنا، وتودِّع آخر.

ما اجتمع الشقيقان في معتقلٍ واحدٍ قط، زيادةً في التعسف والتنكيل، بل وما استقر أحدهما في معتقل، يقضي فيه محكوميته والسلام، بل تنقل كلاهما بين شرقٍ وغرب: من عوفر لمجدُّو وحتى النقب، والأم تلهث وراءهما، تحمّل الزوادة من قبلات، تدسها لهما من خلف السلك الشائك مع غيارات الشتاء: دفي حالك يمَّا، دفِّي حالك منيح هاه. لا تحسب معها عدد مرات يجيئ فيها الخبر من الصليب الأحمر بتبدل محل الاعتقال في آخر لحظة، والمرات التي تصل فيها خيم الاعتقال فتجد أن لا اسم لولديها فيها!

صحبتها مرة لزيارة أحدهما، مرة من مرات قليلة نادرة لا تكون فيها الزيارة إلا لذوي القربى من الدرجة الأولى فقط: أبٌ أو أم! ظلت قبل الزيارة أسبوعًا كاملًا تروح وتجيئ، تتوسل تراكض عقارب ساعتها، وتهدهد كل قطعة ثيابٍ وتشمها بكل قوتها، كأنها تتنفس صاحبها: يا حبيبي يمَّا ! حتى إذا ما حلّ اليوم الموعود، عمدت إلى أجمل أثوابها وتزنّرت كما العروس، وتوشحت باللهفة التي لا حد لها أو رواء. وشاهدتهم أنا، شاهدتهم في الخاكي البغيض، يتناثرون هنا وهناك كبقع العتم على نصوع. ألجأ إلى حماها أواري وجهي، لتأخذ هي بيدي وتعتصرها في كفها البضة كأنها الوطن. ومن بين طيات ثوبها أرسل نظرتي، يرشقوننا بكلمات قدّت من

مقالع الصخر، تجابهها بعينٍ تصدت لمخارز الكون، ترفع المجندة ثوبها المطرز كآيةٍ على سفر، فتنتصب جبلًا، أرفع عيني إليها، ومع عيني أرفع كفي لتحجب شمسًا تجلَّت في وجهها، هناك فوق، فوق حيث تسكن المجرات...

4- خبَّيا:

كلُّ قلوب الأمهات حبلى بالوجع، ترتقبنه وتعددن له الوسائد المطرزة، ينثرنها في كل ركن كيفما اتفق، ويتعطرن له بكامل البذخ، فإذا ما أجاءهن المخاض عضضن على حبال التصبر علَّها تحجب الأنات، حتى إذا ما تجلَّى = أوسعن له صحن الدار، وحلَّ فيهن لا يفطمنه أبدا. أيها الوجع المبارك ما أجلَّك! والجدة تحملك بين أعطافها لا تكل، ترعاك فيها كأنك بقية الولد، وتغذوك كلما خلت بكلِّها، فتكبر فيها وتستطيل، والولدان هناك، يكبران هناك، بعيدًا عن مقلةٍ تتوسل الريح ألا تعبث بشعرٍ صففته بأصابع عينها، والأرض ألا تقسو فتعثِّر قدمًا مشَّتها على أهدابها دهرا ! والشقيقان في المعتقل تعركهما السنون، تأكل على موائد عمريهما، فيجدِّان حدَّ اللهاث وراء أملٍ يتبدى لهما خلف الجدار: وطنٌ ينتظر، ودعوات أمٍّ تبتهل من وراء السلك: معلش يمَّا، والله لتهون!

عام، عامان، عشرة أعوام، خمسة عشر عاما بالتمام والكمال، كأنها نقش الحناء على الجبين، لتغدو لفظةُ أسيرٍ وسامًا لا يتقلَّده إلا الرجال الرجال، وتزهو أمٌّ : أنا أم الأسير! وهناك في المعتقل تجري الريح بأمر ربها، ويمور تنور التفكُّر ليخرج شطأً آخر على أتم النضج، هناك حيث ينتقل الفكرفي الهواء لتتلقفه الأدمغة تحلِّل وتبني، فإذا بالسحر انقلب على صاحبه، وإذا بالمحنةِ استحالت منحةً تصنع أقدار الرجال، فيُصطنع إخوة السجن على عين، لتغدو زنزانة رطبة مظلمة = مرتعًا خصبا للتأطير والتنوير والتحزب والوعي الجديد؛ أقدارٌ تتشكل، وأفهام تولد من رحم العتم، لتحيلهم خلقًا جديدا، أو تثبِّت، والرب من فوقهم محيط!

الشقيق الأصغر، العلماني الصنديد، ذو الشخصية الكاسحة الماحقة، والذي لطالما كان نواة يتجمع حولها الصحب = غدا سلفيًّا لا يؤمن إلا بحلٍّ واحدٍ أوحد لكل معترك القضية ومبناها، فيحفظ على طريق الفتح القرآن كاملا، وبقراءاته العشر، ويلحق به الصحيحين، تعينه ذاكرته

التي وهب، وإرادة الله وتقديره لما سيكون.حتى إذا ما أتى أمر الله = خرج من أسره وعمل بما آمن وله، ليلقى الله شهيدا.. نحسبه.

والماركسي المجادل يصول في ساح الفكر ويجول حتى تثبَّت وصنع من حوله عصبةً خرجت لتمسي قيادات لها ثقلها، فلمَّا خرج تدرَّج في مناصب القيادة وعلا شأنه، وحسنت سيرته، حتى شاء الله له أمرا مخبوءا، فإذا بعائلته بأكملها تلقى الله في الحرب الأخيرة إثر مجزرةٍ ما رحمت منهم صغيرًا ولا أم صغير، فلما تبدَّى له، كرَّ على درب شقيقه ..علَّه يلقاهم هناك، حيث وعد الله الحق!

جدود

(1)

دعوني اليومَ أقُصُّ عليكم قصةً لطيفةً ماتعةً جميلة، تعبقُ بكلِّ وشوشاتِ الماضي وتجلِّياته، حُنوِّه وملاطفاتِه. قصتي؛ عن خشخشاتِ الصفصافةِ تداعبُها ريحُ الشمال فتميلُ معها تارةً تلين، وتارةً تتسامى في عليائها لا يطالها مدُّ البصر، عن نداءات البرتقال والليمون من أقاصي الأرض: هلمَّ إلينا، تعال. عن دلالِ أشجار المانجو والدُّراق وتأرجحهما في الكفِّ ملكَ اليمين. عن الأسمرِ الحُلو القادم من بلاد النِّيل، ذي العيون العسلية الضاحكة التي لا تفترُ ثرثرةً وحبَّاً وطيبة، يُلاغيك كلُّ ما فيه، فلا تملكُ مع هذا الدَّفق الفطري الحار إلا أن تهيمَ به طوعاً، وبدون أيَّ سابقِ إنذار. صاحبُنا الحليوة الطَّموح قررَ أن يجرِّبَ حظَّه في بلد الخيرات الجزال، التي تفيضُ أنهارُها لبناً وعسلا. توكَّلَ على الله ربِّه، عزم الأمر وأعدَّ للأمر عدَّته، حيث حلَّت به رحالُه إلى أرض الرِّسالات. والتجارةُ يا صحب.. شطارة، وصاحبنا حذِقٌ ماهرٌ حلو المعشر طلقُ اللسان، سرعان ما انتعشت تجارتُه، وتوافدَ عليه النّاس يطلبونه بالاسم. وللنَّجاح – كما تعلمون يا سادة – ضريبةٌ لابد مدفوعة، ومع صاحبنا كانت ضريبته أن ألهته أموالٌ وقَبول عن سني عمرٍ تمضي وما من أنيسٍ يأتي بالوريث. مضت الأيام رخاءً وخيراً وفيرا، وما انتبَه صاحبنا إلا على مُضاربٍ جديد، انقسمت زبائنُه على إثر وفودِه قسمين، منهم من لازم صاحبنا زبوناً لا يرتضي غيره، ومنهم من غادرَ إلى الجديد. والسوقُ فيه متسع، والخيرُ كثيرٌ أعم، وصاحبنا الحاذق أبى على نفسِه إلا أن يتعرَّفَ على هذا الجديد، ويجلوَ سرَّ الإقبال عليه دوناً عنه وهو الأثير. لا أدري إن كنتم معه لمعرفةِ سرَّ الوافدِ الجديد تطمحون، أم أنَّكم ترضون بما قُسم من أوَّلِ ما رُسِم.. والسلام ؟!!.. فما قولُكم يا كرام ؟!

(2)

عدَّل صاحبُنا من وضعيَّةِ كوفيَّتِه، وشدَّ زنَّارَ قُمبازِه، فتلَ شاربيه –عادةً اكتسبَها من معاشرة القوم– ، أجزل في تضميخهما بعطرٍ باذخ الإيقاع، ومتوكِّلاً انطلقَ إلى دُكَّان المنافس المُضارب. حادث نفسَه وهو في طريقِه إليه، مُجمعاً أمرَه على بذل جهده ليقنعه بضمِّ تجارتيهما معا، عوضاً عن تشرذم الأرزاق، مستحضراً كلَّ براعات اللسان، وقفشاته التي اشتُهر بها سلباً للعقول والأفئدة على سواء.

وصلَ صاحبُنا إلى مقرِّ الخصم المُفترض، يشدُّه من بُعدٍ ولم يقترب أريجٌ ولا أذكى، يَسلبُ اللبيبَ لُبَّه، والأريبَ مكامنَ فطنتِه، فما ان اقتربت خطاه حتى تعلَّقَ ناظراه بكلِّ مبهرٍ ساحر، من جلال تنظيمٍ وبهاءِ ترتيب، كأنَّه إيوانُ الوالي، أو عظمةُ الحكمدار في أُبَّهةِ حكمداريته. فما أن عرضَ له، حتى وجدَ أمامَه شاباً في مثل سنِّه لا يزيد، قفقازي الملامح؛ أزرق العينين، حوَتا زرقةً حدُّها السماء، أبيض ناصعَ البياض كأنَّه البدر إذ تجلَّى قبلةً للنَّاظرين، حتى حسبَه من جند الإنجليز من ملامِحه وإن كان في لباسٍ عربيٍّ مُقصَّب.

وتلاقت العينان، فبادر الشابُ صاحبُنا وهشَّ وبشَّ له مؤهِّلاً مُسهِّلا، واثباً عن كرسيِّه كما الغزال المنسرح حتى يحسب الرائي والسامع أنَّه يستقبل قائمَ المقام لفرطِ ما أجزلَ في استقبالِ ضيفِه زبونِه، وجعلَ يرطنُ بلهجتِه كلمات الترحيب والتَّشريف، وصاحبنا مأخوذٌ بما رأى منه... وسمع. المهم يا سادة، أنَّ التعارفَ تمَّ بين الشابين على أحسن ما يكون، ووجدت الأُلفةُ سبيلَها بينهما وعشعشت، فالأرواحُ – كما تعلمون– جندٌ لله مجنَّدة، وقد كان أن ألقى الله في قلبيهما محبةً يشهدُ عليها أهل ذاك الزمان، فكنت إذا رمتَ الشامي وجدتَه عند المصري، وإذا ابتغيت المصري فإنَّك لابد واجده عند الشامي. أمَّا عن مجالسِ سمرهما فلا تسل، حديثٌ متَّصلٌ لا ينقطع، وودٌّ ووصال لا ينجلي، وإن ما خلا لهما مجلسٌ من عبارتين أثيرتين:

– إيه.. بتقول إيه؟ !!

– ما عم بفهم عليك، شو عم تحكي؟!!

وهو حديثٌ – لو تعلمون– جدٌّ بليغ، حتى أتقن كلٌّ منهما لهجةَ الآخر كأنَّه هو. فما كان بينهما بعد ذلك؟ ، وكيف سرت بينهما الأمور على أرض فلسطين؟ هذا ما سوف تعلمون.. لو تابعتمون.

(3)

وكان أن جمعت بينهما إحدى أُمسيات السمر الحافلة، واللاتي اعتادا فيها تبادلَ المجلسَين، أما مجلسُنا هذا فقد اتَّقدت جذوةُ هنائه عند الشَّامي، فهلمُّوا معي يا سادة نصيخُ السَّمع لما كان بين الصاحبَين الأريبين من طرائف السَّمر، وعابقات الفِكَر.

– تعلم، يحيِّرني أمرُك والله، كيف تركتَ الشَّامَ وخيراتِها – وأنت التاجر ابن التاجر– وحللتَ فلسطينَ بالذَّات!!

– بل عجبٌ سؤلك صاحبي.. أمَّا الشام فهي أرضُ خيرٍ لا يُختلف عليه، رخاؤها يعُم، وأسواقها تلُم، منزلُ كلِّ قاصد، ومنهلُ كلِّ وارد، تراها عامرةَ البنيانِ زاهرة، لا يضاهيها لاكسرى ولا أساورَه، فيها من التاريخ العبق، من كلِّ عابرٍ ومن مرق، والرِّزقُ فيها مواطنُه لا تعد، فكيف يا صاحِ بابن البلد، ومن له فيها الرِّفدَ والسَّند!!

– وطالما هذا حالُ الشام– وأنا أعلم–، فلم ودَّعت خلفك مكامنَ النَّوال والمغنم!!!

– هو سرٌّ جدٌّ خطير، وأنت عنديَ الأثير، فأرهف السَّمع واقترب، أنبئْك خبرَ ذا العجب

– كلِّي آذانٌ صاغية.. فهاتِ ما عندَك يا داهية.

– أما يا صاحبي فإنَّنا لم نُذرء على الأرض آكلين شاربين، كما النَّعم في فيافيها سارحة، والموت موعدُ كلِّ من عليها آفلين، أفلا نعمل ليومٍ تبكي علينا نوائحُه!!.. أمّا أنا فقد رسمت الطريق، والحيدَ عنه لا أطيق، فكان منِّي أن هجرتُ داراً لابد مفارقُها، إلى دارٍ لابد واردُها.

– وكيف ذاك بالله عليك، دُلَّني يدي بزُنَّاريك.

– أفعل، ودون أن تسأل، ألست لي الأخ والخِّل، فاسمع مني ولا تستقل... تركتُ الفرنسيَّ في بلدي ورائي، وتلهَّفت نفسي لأرض الرسالات، جهاداً فيه ما كنت مرائيا ، ولكنَّه العشقُ استوى في قلبي والثَّبات.

– يا الله، وكذا أنا فعلت.

– أعلم، وهذا ما فيك توسَّمت، ألم ترنِ إيَّاك لازمت.. وآثرت!!

– ومن يُطِق حياةً والمسرى أسير، أصدقُك القول أم أُفضي بما شاء القدير؟

– بل أفضِ وإلّا كان الفراق، ألست منِّي الأخ والرُّوح الصِّداق!!

– أجل، فلتعلم يا أخي أنِّي تركتُ ورائي بلاداً الخيرُ شريانها، أنَّى اغترفت فثمَّ الذَّهب، وليس أنفسُ من أبنائها، إذا انتخيتهم ترى العجب. لكنَّ الرُّوح منِّي لم تطق قعوداً وأنا ابن الأزهر، فقررتُ منَّها وصلاً وإن كان على غيرِ مظهر، فلبست رداء التاجر وجعلتُ أُعسعس، علِّي أحظى بما من أجلِّه سعيتُ أحتبِس، وإن شاغلني مالٌ أجمعُه، فعلى نيَّةٍ يعلمها الله إنِّي لمُنفقه

– إذاً.. فقد غَدَوْنا اثنين، فماذا نحن فاعلان يا عين!!

وإن أخبرتك أنِّي أشتمُّ ريحَ خطةٍ متكاملة يا أريب، هلمَّ بها إليَّ ودع عنك ما يُريب

– أمَّا السِّلاح فعندي منه ما يكفي اثنين، والتدريب عليه في الغوطة واسأل شجر الدُّرَّاقَ والتين.

– أمّا السِّلاح فعندي منه ما يكفي اثنين، والتدريب عليه في سينا لا غير، واسأل – إن كنت فاعلاً– صادحَ الطَّير –.

– هاتِ يدك.. الله أكبر ولله الحمد.

– هاكَ يدي.. الله أكبر ولله الحمد.

هذا ما كان من مجلس الصديقين، وما كان بينهما من اتفاق، فإن كنتم يا سادة مُتابعين، فأعلمون.. لنصلَ إلى ذروة السِّياق، قبل أن تُغافلنا الحرب فلا فوت، وما ندري حياةً من موت.

(4)

وقد كان لهما ما أرادا، بل ما خططا له عن سابقِ إصرارٍ وتصميم، فكان التحاقهما بخليَّةٍ مجاهدة تنتمي لفصيلٍ أوحدَ معروف حينَها بأميرِه الثائرِ المجاهد المؤسس لفكر عالمية الجهاد في أرض الإسلام قبل جيفارا ومن يحزنون. الفلسطينيُ الطائر سليلُ الأسرة العريقة، الضَّاربة في جذور الأرض أصلاً ونسباً ومكانة = أولاهما هما بالذات عنايتَه، فأوصى من طرفٍ خفي لأمير الخلية أن لا يعهدَ إليهما بمشترك العمليات الفدائية أبدا، بعد أن أوعزَ إليه الأخير بمتينِ صلةٍ بينهما فاقت رابطة الدَّم وتعدتها للرابطة الأعم والأجل، فجعلت منهما روحاً تسعى في جسدين اثنين، بعثت في نفس الأمير تلكم الرابطة مخافةَ أن يتفانى أحدهما فداءاً للآخر كمن سُلسِلَ بسلاسِلِ الفولاذ وقيل: اسعَ ولا تهب. وعليه؛ فقد حيلَ بينهما وبين تجمُّع، فلم يفتت ذلك في عضديهما أبدا، بل مدَّه فوق المدد مددا، عساها شهادة ينالُ فيها الآخر شفاعة، أو نصر يستوي من بعده اللقاء. فكانت عملياتٌ متناثرة هنا وهناك تقُضُّ منام الأجنبي وتثير جنونَه، يدُ الثوار الضاربة ترصدُهم وتتحيَّنهم أينما ووقتما يحلو لهم، وما استطاعوا لهاتيك الخلايا اختراقاً لا ترهيباً ولا ترغيبا، بعد أن عُبِّئَ الشباب تعبئةً عقائديةً متينة، هيَّج جذوتها جهادٌ على أرضِ الرباط أضرمت فيهم الغضبةَ لله في أرضه المباركة. توالت الأيام وتجارةُ الصاحبين تربو؛ سعةً في المال صُبْحاً، ودرجةً عند الإله رباطاً كلَّما هتفَ داعيَ الجهاد. حتى كانت ليلة، تناهى فيها خبرُ إصابةِ المصري واعتقالِه إلى مسامع خليلِه الشَّامي، فتوقَّدت له نارُ الحشا حتى ما تركت من صبره صبرا، يُحادثُ نفسَه كمن أصابته لوثةُ بترِ عضوٍ من أعضائه، فما هو بطائله وما هو بمستعيضٍ عنه، وما لبثَ أن حزمَ أمرَه، وأعدَّ عُدَّته يتصيَّدُ الأخبار، حيناً بالرِّشوة ما استطاع، وبالدَّهاء والحيلة حينا. حتى أتاهُ اليقين بعدَ لأيٍ وجهد، أنَّ خليله بعد إصابته أُحتُجزَ في البيماريستان العسكري، وعليه من الحراسة شديدها، بعد أن عوَّلَ عليه الأجنبي مصدراً لمعلوماتٍ طالما أعياهم استنطاقَها. وما كان من قفقازي الملامح الأريب إلا أن استعانَ بزيِّ الأجنبيِّ تنكُّراً موفَّقا، ليزور البيماريستان على هيأتِه تلك ويحدد مكانَ صاحبِه، يستقرئُ المخاطرَ ويُقعِّدُ لخطةِ تهريبه والفرار به بناءاً على معطياتٍ حازَها كلها بعينٍ مُدرَّبةٍ أريبة.

وقد كان له ما انتوى وخطط ودبَّر، أن تسللَ إلى المستشفى العسكري ذاك أثناءَ تسلُّمَ مناوبةِ فريق الحراسةِ مكانَ الفريقِ المُناوب، فاعتلى صفصافةً قريبةً سبق له رصدُها ، بعد كمونٍ منتظِر وكوفيَّتَه لا تظهرُ غيرَ عينين زرقاوين نافست زرقتهما زرقةَ سماءٍ صافيةٍ رائقة.

اعتلى الشجرةَ، ووثب إلى غرفة الخليل حاملاً إيّاه- وهو المُصاب- على كتفه، ووجد طريقَه إلى مكمنٍ أعدَّه، وعينُ الله تكلأهما. كلُّ المدينة تناهت إليها أخبارهما، وقصةُ تهريب الفدائيِّ الفدائيَّ صديقَه على كتفه ذات ليلةٍ صيفيَّةٍ رائقة =أضحت مثلاً تتناقلُه الأجيال ليومنا هذا. تتنقَّلُ أخبارَ الدَّمَ الواحد الذي جرى في جسدين وريدُه، أخبارَ السرِّ الإلهي في الأرض المباركة الذي يُحيل المعتادَ مُتفرِّدا، ويستنهضُ مكامنَ البطولة في أسودٍ جُبِلوا عليها وما دروا حتى استُهضوا، أخبار أن الحدود على أعتابها... تراب. بقيَ أن أُعرِّفُكم على بطلي قصتي هذه إن سمحتم لي. فأمَّا المصري... فجدِّي لأبي. وأمَّا الشَّامي... فجدِّي لأُمي. وقد كان لهما أن تزوجا من فلسطينيتين (أُختَي رجال) تتبارى فيهما صفات الأنفة والكبرياء نصيباً مفروضاً لكلِّ فلسطينية.

صوت إسرائيل من أورشليم القدس

1- صوت إسرائيل من أورشليم القدس:

حتى هذه اللحظة لا أكاد أفهم طبيعتكم أيها العرب، من أي شيئ قددتم يا هؤلاء؟! أأنتم أقرب للأسماك البلهاء التي لا شغل لها سوى التكاثر فتوسط موائد أقوام على مدى عصور، أم أنكم مجرد فطرٍ عالقٍ في المجرة يبحث بنهمٍ عن أول محطةٍ للنزول، ثم إنَّه يستعين على النزول بظهر عائلٍ يتشبَّثُ به!

في الحقيقة أنا أستغرب ذلك المجهود الذي بذله أجدادي عبر القرون معكم، كان يكفيهم نزع الطرف الأول من كرة الصوف المتضخمة في ذواتكم الهشة، ليتوالى كرُّها ويبدأ معه مهرجان الاضمحلال فالتلاشي على قارعة التاريخ! كان يكفيهم النفث على عهنكم لتحملكم ذرات الهواء في كل المطارح أشتاتًا متفرِّقين، لكانوا وفروا علينا صفحاتٍ نمجُّها ملئت بهراء عنترياتكم، ولكفرنا بالغول الذي أوهمونا به، وحذّرونا من التغاضي عنه، حتى إذا ما انكشف الغطاء عن مسخٍ لطالما تهيَّبناه.. وجدنا تحته فأرًا مرتجفًا، يناشدنا قطعةً من جبنه، أو منحة ماء!

أنا اليوم أتأمل ذلك العابر أمامي، يشبهني في كل شيئ، له ذات الملامح والسمات، لكنني أعرف أنه ليس أنا ولا هو مني، يجتهد المسكين ليشبهني: في مشيتي، في طريقة ارتدائي، في لكنتي، ولكنه عربيٌّ عابرٌ آخر، متهدل الأكتاف واهن، يظن أنه صاحب حق، وأنه على حق، وأنَّ الربَّ سينصره حتما، ولكنني أنا أراه بعين رأسي لم ينصر الرب! أنت أيها العربي المارق محض عابر زائل، حدث طارئ يجول على حاضري، مفعولٌ به لا يدري أنه جزء من صفقتي الكبرى مع العالم، ألوكه وأستخلص عصارته، ثم أتفله في أقرب حاوية تقابلني في طرقات مدينتي المقدسة!

أطوف بعيني أنحاء المدينة، فأراهم ينغصون عليّ المشهد، هنا وهناك كبقع الزيت على سطح نهر جار، هذي العجوز بثوبها الغبي المطرز، متثاقلةٌ هرمة، أليست أجدر بالموت!! وذلك الشاب بالكوفية اللعينة، يصوِّر له عقله القاصر أنَّ الوطن يمكن أن يختزل بكوفيةٍ ونظرات رعناء مترصدة يرمقني بها، الأبله، لو أعاد النظرة لأثقلت رأسه الفارغ ذاك، ولأوسعته من بعض ما أكنُّ له. فقط لو أنهم أبادوهم، فقط لو أنهم شتتوهم وما أبقوا منهم عليها أحدا، عندها وعندها فقط كنت سعدت بغنيمتي، أجرُّها بعيدًا عن القطيع لأهنأ بها!

2- صوت إسرائيل من أورشليم القدس:

يطالعني وجه جاري متأففا: أكره العرب، ليتهم يبادون عن بكرة أبيهم! فأرد عليه ساخرا : دعهم يتقاسمون معنا الأرض يا ليفي، ليهدر في وجهي: عن أي أرض تتحدث! وأي قسمةٍ تلك !! هؤلاء ليس لهم عندنا إلا الموت!!

ليفي ليس بدعا منا كما تعلم، هو الوجه الصريح الواضح الفج نعم، ولكن كل يهودي على أرض إسرائيل يحمل هذا ال"ليفي" في داخله، مفطور عليه! فترانا نبرز للعالم شيئا يسيرا منه عبر قطاعٍ زمني عريض، ونخفي الهول بعينه! نحن نعرف هذا فينا، نتباهى به في تجمعاتنا، وندلل عليه كلما سنح لنا، فكيف لمثلنا أن يتهاون في تعريف حقٍّ يفصل بين وجوده والعدم! كيف له أن يسلِّم هكذا: من أول هيعةٍ عرجاء تطالب بحقٍّ مزعومٍ يقودها لا أحد! أي حقٍّ هذا الذي تطالبون به! أي حق!! أنا الحق!

يأتيني الرب في المنام ضاحكا: أنت يا موشيه مني وأنا منك، والأرض كلها لك، أقم لي هيكلي فيها، ولا تمنح قطعاني الثاغية لذة اجترار عشبها والتمطي عليها أبدا. أنا الرب الذي نثرتهم عليها هنا وهناك: كيفما اتفق، شراذم تهمي على خدها الذي هو لك، هم عبيدك الذين اصطنعتهم، يحفظون لك ملكها، ويعبِّدون لك وجهها، فإذا ما جاء وعدي ... احرقهم يا موشيه، احرقهم، لا تبق منهم رضيعا ولا كهلا، أرني محبتي في قلبك، ولا تذر عليها منهم أحدا!

سمعتم أيها المارقون! أنا الذي أرى بعين الرب، يأتيني الرب كل سبت يسائلني: كم قتلت منهم اليوم يا موشيه؟ فماذا أجيب الرب! أخبروني أنتم..بماذا أجيب الرب؟!

ثم ها أنتم تجترون أحقية الميلاد، وترهات أجدادكم، وكل خزعبلات دوائركم القرمزية: أمٌّ تلد وأخرى تربي: تستدلون على حق لكم، وتنسون أنني أنا من يرسم حدود الحق!

أنا اليهودي: أتشبَّث بتلابيب ذاكرتي منذ العبور الأول، أكاد أحس برد الفرات على أصابع قدمي فتتجمَّد له!أنا اليهودي: ألهث فتتفطر رئتاي، ويلهب ظهري سوط وتثقله حجارة، أنا اليهودي: يتقرح جلدي ويلهب جوفي الجوع و يتمرغ فيّ، أنا اليهودي: عيناي شاخصتان في سماء حصنٍ بعيد أنتظر الموت، أحمل رمحًا أدسه في الأرض، وألقي بثقلي عليه! أنا اليهودي.. فأخبرني أنت، إن صفعتك الآن هل ستسمع دوي الصفعة!!! فإن سمعتها ستنكرها وتكذِّب عينك وتقول ابن عمٍّ كريم، أو تغلي لها وتفور دماء عروقك، ثم ترغي وتزبد، وتبرق وترعد، وتنفث لهبًا من منخريك، فإذا ولَّيت عنك وصفعت أخاك، هدأت وركنت وابتسمت، فإذا ما حان موعد الصفعة التالية كنت قد نسيت!

فأيها البوم الناعق الذي لا يكف عن التأوه والتحسر والثرثرة، يا صديد جروحٍ متقيحة، أثخنت جسد التاريخ وأزكمت الأنوف واشمأزت لها الأرض، أيها العفن الرابض على حنجرة الزمان الصدئة: كفُّوا عن هراء الوجود، امنحونا السلام... وموتوا !

3- صوت إسرائيل من أورشليم القدس:

على الحاجز أقف، شمس لاهبة تجلدني بسياطها، والعرق يزحف كأسراب نمل.

الملل يعبث بي، فأتنقل بينكم أبحث عن تسلية، أهينكم، أبالغ في إهانتكم: هات هويتك، ارفع قميصك، عد من حيث أتيت. أراقب تنمركم المكبوت وعجزكم، مقهورون أنتم، يعشش الغضب فيكم، ثم إنه لا يجد له متنفسا!

أثرثر مع دانيال: زوجتي لم تتم البارحة من مغص كاد يمزق أمعاءها، يمط دانيال شفتيه ويومئ لواحد منكم أن ينضبط في طابور ثغائكم الطويل، تأتيني عجوز منكم: اسقها ميرامية يا خواجة، ألتفت إلى الشمطاء التي تجيد العبرية: وما هذه الميرامية؟! تصفها: عشبة جبلية كنت أقطفها مع أبي صغيرة من على جبل الخليل، وهي شراب شتائنا وعدوة البرد. أنتم و"هار حفرون" وكل جبالكم! أنا الآن صرت أعرف الميرامية، ألفظها بطريقتي الخاصة، أمنحها نكهتي ومذاقي، تصير عبرية، وتصير كشفًا يهوديا آخر!

نشرات الأخبار تطربني: أحتسيها مع كوب قهوةٍ يمنية، وأزدردها مع منقوشةٍ أتاني زعترها من "الجليل"، أراقب بشغف مصارعكم، هنا وهناك، تموتون، أراكم تموتون فيثملني الطرب، أصفق جذلًا وقطرة من زيت "بيتونيا" تتسلل إلى ذقني فلا أعبأ بها، أركل منضدة من خشب "صفد" جذلا، أيها العرب: أنا لم أر من يفوقكم في فن الموت أبدا، يا ملعونون: أنتم تجيدون الموت!

ليفي يقول: هذا الجلد القابع على جسد طفلة اليرموك الناحلة يعجبني، سأخيط منه ثوبًا أرتديه في عيد المساخر القادم! مشاكسٌ أنت يا ليفي. مشاكسٌ أنت!

يطرق ليفي أبواب التسعين ولم يزل أنفه يرتعش بانتشاء كلما تذكر: استخدم الرفاق بنادقهم في البداية، وحدي أنا أبيت، انتزعت السونكي وبدأ الصخب، لم أهدأ لثانية، كل دقيقة كانت تعني روحًا إضافية أنتزعها، ثم أوسع الجسد المتهالك بكل طاقة البغض المعتملة في صدري قرونا، منحت كل واحد منهم دقيقة كاملة، دقيقة كاملة يا موشيه أفرغ فيها بعض غلي، وأنا أحصد وأحصد، أبقر، أسمل، أذبح، أسابق الرفاق والزمن! تخادعني الدقيقة وتنسل من بين أصابعي فأكاد أجن، تتثاقل ذراعاي من التعب فيطير عقلي، أدور بعيني

فيما حولي، الجراء الخائفة تندس في حضن ما بقي من أم، أين أنت أيتها الجراء؟! عمكم لا يملك الوقت، أستل واحدهم من قدميه، ثغاؤه يرهق أذني، فأهوي برأسه على أقرب جدار، يتناثر اللحم والعظم على وجهي. يتحسس ليفي وجهه: هنا يا موشيه، وهنا ، وهنا ، رائحة دمائهم تحتل أنفاسي، ما أطيب رائحة الدم!

غير أن العرب الحمقى يطيب لهم دوما لعب دور المتذاكي المتصالح مع نفسه والعالم، ذلك الدور الذي أراقبه فلا أكاد أمنع نفسي من الاستلقاء على ظهري وقد غلبتني موجات الضحك. هم وطَّنوا أنفسهم، وأعدُّوا وجناتهم للصفع بلا كلل؛ يظنون أن للإنسانية ومفاهيمها ودواعيها مكانا في قلب اليهودي، فيميلون على هذا الاعتقاد كل الميل، فيؤطرونه ويؤدلجونه ويطبّعونه، ونحن نمدهم في أمانيهم، ونتسلق جدرهم التي بنوها من هواء إلى غاياتنا!

ثم أتيتمونا صاغرين، أنتم وأشقاؤكم أتيتمونا مذعنين، بعلمكم أو بالخدعة الكبرى، بذل سياسيِّكم ورعنائكم، أو بعبثية مقاومتكم ،النتيجة أننا بتنا بين جلودكم والعظم، نسيركم كما نشاء، نلهيكم بجزرة أبدية نمدها لكم فتسعون وراءها بحدِّكم وحديدكم، والبون لايزال على حاله، كما هو! نلهيكم بسياسة الأرض المجزوزة، لا نحرقها أبدا، فتسارعون بإلقاء قرابينكم في محرقة رضانا، كلما برَّزتم لنا جيلا جديدا اصطنعنا له أفرانه الخاصة: هبَّات مآلها الوأد، وغضب زائف، وثورات خدَّاعة..

تحاولون إرضاء ضمائركم المثقلة ببضع انتصارات زائفة نسمح لكم بزهو التفاخر بها عن طيب خاطر منا، نجفف نبع سخطكم برضًى لحظي، ونستنفذ طاقة البغض الوقتية عندكم بوهم نصر! نفرغ لكم بعض جند الاحتياط: حدث قليل الخبرة والمراس، يستفزونكم، ليخرج أشدكم بأسا إلينا، نلتقطه ومن على شاكلته، فنطهر ساحة الصراع منهم، ذلك أنكم لا تعرفون كيف تصطاد القرود في أفريقيا!

نسمعكم تستهزئون بجيش دفاعنا، تنعتونه بما يسمن وحش القش المنتفش فيكم، وهو الجيش الذي مرَّغ أنوفكم في طين هوانكم، جيش دفاعنا الذي يقاتل باسم الرب، يحمل الفرد منه مع عدته وعتاده قلبا مفعما بالبغض، وحبا في البقاء يطيب معه الموت، وكله باسم الرب ! ثم يأتينا واحدكم – كلٌّ في بلده – من وراء ألف سورٍ وسور أعليتم بنيانه بأيديكم،

واحدكم الذي باع ربَّه في أقرب سوقٍ للنخاسة، يأتينا ليضع ساقًا على ساق، فينعتنا نحن بالجبناء!!

نفرغ جبروتنا في أوصياء لكم خلَّفتموهم وراءكم، وبعتموهم مع أول صرخةٍ عليكم، نتقاذف أشلاءهم، ونستلذ طعم لحومهم، ونلهو بدمائهم، وأنتم من وراء شبر عنهم تنوحون كما النساء، وتنعقون كأسراب بوم!

4- صوت إسرائيل من أورشليم القدس:

ثم إنّ منكم من قرر أن يكرهنا، ويبادلنا بغضا ببغض، ومقتا بمقت، وهؤلاء حالةٌ متفردة من العرض الهزلي الذي لا انقطاع له! أراقبهم يتميّزون من الغيظ، فما يكون منهم إلا أن ينسفونا بهبَّةٍ جماهيرية على أبواب السفارات، يحرقون أعلاما، ويزيِّنون الحناجر بجعجعات لا تتجاوز أقفاصهم التي صنعوها بأيديهم، تمضي تذروها الرياح، أو يفرّق الجمع قنبلة غاز !

ألم نقلها لكم: محمد مات، وخلَّف من ورائه... بنات!

بنات يتبادلنَ صور قبتهم الذهبية، يتبارين في تصويرها من زوايا مختلفة، و ينسجن في عشقها القصائد، ويكأنها غانية لعوب ليس لها منهم إلا كلمات العشق والتدله المشبوب، يحبسونها في أطرٍ مذهبة، لا يكاد يخلو منها بيت، كأنها تيمة تشفع، وكأنّ ما عليهم قد أسقط!

ينادونها: حبيبتي، فإذا ما جد الجد، فاستنهضت نخواتهم، أنكروها وولوا عنها مدبرين! كيف لا وهم ما عرفوا لها اسما، ولا حفظوا لها تفصيلا، ولا اشتموا منها رائحة! يجهلونها كل الجهل، وأنا موشيه، أنا الذي عبّد نواحيها بكل ما فيه، أنا الذي ائتمنتني على سرِّها ونجواها، أنا الذي تمتعتُ بكل ما فيها، حتى تطبَّعت بطابعي أنا، وتشرَّبتني أنا، ثم يأتون ويطالبون بحق! الحق في الحبيبة التي ما ذاقتها حواسهم إلا صورا، يتبادلونها ويعلِّقون عليها أردية غرامهم، فتصدُّ عنهم وعن مراهقة حروفهم لترتمي في أحضاني أنا!

هؤلاء الناكصون على أدبارهم أبدا: فمنهم مقرٌّ بعجزه، ساح بدمعه، والدمع منه كثير، يكاد يبخل به لولا بقية حياء، ومنهم من ركن واستثقل التكاليف، وارتضى لعروسه بعلًا يقوم بها وترضاه!

أنا لم أر أثقل من همة هؤلاء، ولا أقل من صبرهم: غواغئيون متسرعون، يصنعون رجال القش يحاربونها، ويذرفون دماءهم على عتبات غيرهم، يموتون، إنهم يموتون، ثم لا يدرون فيم قتلوا، ولا لم، وفوق ذلك يلوذون بحمى من استحل فأراق! انفعاليون رعناء، مشتتون وبأسهم على بعضهم شديد، وقتيُّو الغضبة، منزوعو الهيبة: محض مجموعة من التناقضات الفجة التي لا يحويها إلا قاموس خيباتهم!

ثم إنني على علاتهم تلك لم أجد أكثر منهم تأليها لذواتهم، واعتدادا بها، فإن فنّدت الأسباب التي دعتهم لما ذهبوا إليه لما وجدت منها سببا يبرر، بل هم أقرب للجيف التي كانت في يوم حية تسعى، فمتى ما نزعت منها الروح، خلت من كل شيء سوى عطن الرائحة! ربما اعتدادهم ذاك هو من صور لهم الأحقية في الأرض التي ارتبطت –لما ارتبطت– بدين، وأنا أراهم متخمين بكل شيء إلا الدين!

أراهم ما اكتفوا بما فرَّقهم، فجعلوا من ما مازهم به الرب من تعدد قبائلهم وأعراقهم مصدرا آخر للجدل والخلاف والنزاع، كعهد الأرض بهم، كأنهم يصطنعون للفرقة أسبابها، ويزيدون في تسعير أوارها، والمفلح من انتصر لعرقه،وسفَّه الآخر، وانتقص الآخر، وأبعده، وأنكره، وكفَّره!

هؤلاء هم العرب حقا: كيان لا سمة له، ولا طائل من وراء وجوده، أمة واحدة غير أنهم أبوا إلا الفرقة، واصطنعوا لها ألف ألف عجل! اختصوا بلغة واحدة يتعبَّدون بها، ونسب كل من نطق بها إلى العربية، فركنوا إلى لهجات شتى بها يتشاتمون! ثم مضى كل إلى عرقه يلوذ به، وباسمه يدين! ويجمعهم دين واحد، غير أنهم قسّموا أنفسهم رغما عن أنفسهم شيعا، وراح واحدهم ينصب ذاته ربا ومن دونه الكافرين! انظرهم وقد جمعتهم أرض يؤدون عليها منسكا مقصده توحيدهم، فإذ بهم تتجلى عليهم علامات الفرقة فيه على أجلى ما تكون!

5- صوت إسرائيل من أورشليم القدس:

البارحة كنت أشعر بحالة من الملل غير اعتيادية، ذلك النوع من الملل الذي يدفعك للإتيان بالحماقات لدفعه: ملل يرزح على أنفاسك فيجعلك تخوض الهول لتزيحه بلا أدنى قدر من وجل، وهكذا قررت زيارة صفحاتهم!

أظنهم كانوا يتجادلون كعادتهم على شيء ما لم أفهمه، فتابعت التعليقات، وتدحرجت عيناي الجذلتان على السطور، وذهب الملل إلى غير رجعة!!

كان الفلسطيني منهم يقذف بالحجارة كعادته، بكل غل ومقت كعادته، لا يستبين الهدف الذي يصب عليه جام غضبه كعادته، غوغائي متنمر مستنفر: يكيل مفرداته من قعر جهنم كعادته، تأرجح نبرته ما بين المظلومية والفوقية تدفعني للضحك حتى يكاد يتمزق شدقي.. كعادتي معه!

ويبدو أن المتلقي لكل هذا الكم الهائل من الانتقاص والتسفيه والاستهزاء كان سوريا! فلسطيني وسوري يتكايلان ويتشاتمان، حتى لتكاد تشتم رائحة الإطارات المحترقة، وينالك نصيبك من وابل الحروف! ثورات كلامية متكاملة الأركان استنهضت أمام ناظري، وأنا لها أطرب، وأسعد، وأجذل!

حسنا، يمكنني أن أفهم – وبكل سهولة – سيكولوجية العربي وتناقضاته التي تجعل الواحد منهم إلاها فردا أحدا تارة، وعبد كل شيء إلا الرب تارة أخرى، ولكنني لم أفهم نقطة الصراع بين هذين الاثنين بالذات، يعني كيف يعاير الفلسطيني سوريا في عرضه، وكلنا نعلم أن ابنة السوري هي بعينها أم الفلسطيني! أوقد يكون العكس هو الصحيح، في متتالية تباديل وتوافيق لا تنتهي ! حتى كأن الأمر بات أشبه بكرةٍ مطاطية يتناوب عليها فريقان يعلمان كل العلم أن لا شباك لكل منهما تحتضن الكرة فتحتكرها، لتظل الكرة تتأرجح بينهما إلى الأبد!

والدي مثلا كان مصرا أشد الإصرار على أن الجندي المصري الذي ناوله الرفش ليحفر قبره، قبل أن يركله فيوقعه فيه، ويأمر غيره بان يطمره حيا، أقول.. كان أبي متأكدا أنه رآه صبيحة اليوم يركض في شارع "ديزنغوف" ليحتمي من سيول المطر!

يقربني منه ويهمس في أذني أبي : القطن المصري لم أر أجود منه ولا أمتن يا موشيه، تحسسته بيدي وعاينته على أجساد جنودهم بعد أن نزعنا عنهم بزاتهم العسكرية، كان عرضا مذهلا يا بني، عرضا باللون الأبيض الجميل ، صفوفا طويلة طويلة من الأبيض الناصع، حتى أنني – ولقهري– كبلت به أيديهم، وعصبت أعينهم، قبل أن أمنَّ عليهم بنصيبهم من الموت الذي أختار!

هو لا يكف في كل نزهة خلوية نقضيها في سفح يهودا عن سرد ذكرياته كأنها ترنيمة في سفر، يقول العجوز: رائحة شواء أطفال بحر البقر ذاك..! الفانتوم تعوي لهبا بكرا أسود، والجرذان الصغيرة في الأسفل تتلوى وتموت، اللحم الطري، اللحم الطري الغض يذوي تحت وطأة النار المقدسة، ناولني قطعة اللحم تلك يا موشيه، ناولني قطعة اللحم، لأنعش ذاكرتي.. وأتذكر!

أبي لا يدري أنني شممت ذات الرائحة بكل تجلياتها في الجنوب! الجنوب اللبناني القريب، قالوا لنا بأنه كان ملجأ، وأنا –بالطبع– لم يعنني الأمر، كنت أبحث عن اللحم على كل حال، اللحم الطري الغض، أقضمه عن العنقود!

في نادي المحاربين القدامى لا يكف شلومو البدين عن القهقهة: بعيني هاته رأيت المرأة التي هامت وراء جثة ابنها التي جرفها السيل، من صحراء النقب حتى غزة، جثة نتنة الرائحة مشوهة الملامح إلى حد أغاظني ممن حظي بكل هذه المتعة في التمثيل بها ! أذكر يا رفاق أنها ما استدلت عليها إلا من ساق خشبية حوت في جوفها زينة القوم! ونعم، قد نلت نصيبي منها بالطبع!

جاري إيزاك أظنه..يعني لا أدري من أين بالضبط، ولكنه جاري منذ زمن، نتقاسم لمز فلسطينية عابرة تحمل خيمة على رأسها فترهق المشهد، ونتشارك تشجيع منتخب "مكافي تيل أفيف"، ونكرع الأنخاب معا، قبل أسبوع فقط علمت أن أصوله مغربية! وأنه ينتمي إلى حزب "شاس"!! لعبة الجينات هذه..!

البيلدوزر البولندي يحييني كل صباح: شالوم عليخم، هو ابتدأ تعلم العبرية مؤخرا، لذا لن ألومه على غياب الخنفة الشهيرة، ضياع اللكنة هذا يوترني حقا، ولكنه سيكتسبها ، لن يلبث إلا أن يكتسبها، ويحتفظ بها إلى الأبد!

صديقتي الجديدة ليا سوداء بنكهة الشوكولا، قردة إفريقية ناطقة بالعبرية، تتقافز حولي وتزعق بكل ما فيها : هذا ال"ليتشمان" سيقوض أركان الحزب بسياسته الخرقاء! ما الذي يعنيه وجود فلسطيني آخر يقاسمني الهواء!! لم هذا التهاون في إبادتهم!! هاته العجائز الخرقاوات التي تسمى بقادة الأحزاب ستذهب بنا وبال "هآرتس" إلى الجحيم!!

قد يطيب للعرب المهووسين تناقل أخبار الكيان الكرتوني الهش، وصراعات السفارديم والشكنازيم، وكل ال الهراء الذي يجيدون اصطناعه، كعلامات ودلائل على قرب انهيار دولة إسرائيل، ولكن هشاشة المشهد تخفي وراءها سورا منيعا يكتّل كياننا فيأبى التصدع! أنا اليهودي الإسرائيلي أعلم يقينا أن بقائي واستمراري وثباتي على الأرض هو رهن ضعفكم وتشرذمكم وتهالككم على دنياكم، انا الإسرائيلي باق ما بقي فيكم خواركم وتنطعكم وكل تناقضاتكم، أنا الإسرائيلي باق ما فنيتم أنتم!
في الواقع، لا يضيرني بين الفينة والأخرى تسريب ما يمنحكم بعض جرعات الأمل الزائف ذات المفعول العكسي، الجرعات التي تثبط همتكم وتعمد بكم إلى الركون، وتنتظرون الرب، وهراوة الرب، كأن الرب هو الوصي عليكم، وهو القائم بأعمالكم، الذي لن يرتضي لكم رهق المسير!
فالأمل عندكم – دونا عن كل الأمم– هو استراحة من الاستراحة، وتعلق بالمعجز والغيبي والوعد الرباني الذي تدَّعون على حساب الواقع الذي تتجرعون مفرداته في كل يوم من أيام حياتكم البائسة! حياة تفترشون فيها قارعة الزمان، وتشحذون تعاطف التاريخ؛ أمة منتهية الصلاحية، تقضم ذاتها، وتنهش نفسها، وتزدرد، ثم تنتشي بكؤوس دمها، فتتثاقل وتهوي بدوي يليق بانتفاش جثتها ... وتموت!

حكايا القدس

1- حكايا القدس

ولزمت ما بين المناكب ترقبين، ألفيةَ السِّفرِ المقفَّى من (فاء) خفَّاقٍ ف (نون)، على وجهٍ تُرتِّله المدينة...بحدرٍ؛ إصحاحُ المتون. وتُسبل أهداب المآقي خفرًا على قلبي رحيما، وأنا على أكناف الرضاء أدافعها اللحون، فأغالب الهنَّات بالوجد المبين. وجهي والمكان وكلُّ قوَّامٍ أمين، يعالجون ألواءَ الوصول إلى مرابعك الفتية، وسابلةُ الزمان الأقدمون، لتحط عيناك على سفري أنا، وحدي أنا وعن سواي تعرضين، مجبولةٌ بأوردتي منذ زامورٍ ف (ناس)، وعلى جنح الملائك تتواردين، يا شهقةَ النساك يا ترنيمة مخبتٍ ما أحيلاك: على بسط الرغائب ترقبين!

2- حكايا القدس:

يُقال

والعلمُ عند الله

أنَّ هناك مسجدًا

في بلادٍ

أظنُّها الشآم

لا أدري بالضبط

أهي في الغرب

أو في الشرق

لا أدري بالتحديد

ما علينا

المهم..

والمسجدُ تؤمُّه نساء

يصطففن حولَ سورٍ
يقالُ له براك
أو لعلَّه براق!
تباً للذاكرة
تخونني
في أحلك الظروف
ما علينا
المهم..
ويُقال
أنَّ تلكم النسوة
يشبهن أمَّهاتنا
وبناتنا
يُشبهنهُن
وعليهنَّ ما عليهِن
كنَّ يؤدين الصلاة
ومُنِعْنَها
فوجدن في الساحات
مُتَّسعًا
حتى إذا ما مددن السواعد
وجعلن مع السور
سورا
وضربن الرصاص المصهورَ
بصدورهن
يُقال
بأنَّ جارًا هناك
أصابه الهلع

ولهذا جمعتكم

من كلِّ وادٍ

حولي هنا

فكيف يا رعاكم

تسكتون!!

كيف يا نشامى

عن فعلةٍ شنعاءَ تصمتون!!

بل كيف تسمحون

يا أشاوس

يا حماةَ الدار

وكلُّ النَّخوات فيكم

لهاته النسوة

أن تُصيبَ جارًا لكم

ابنَ عمٍّ لكم

بالهلع!!

قولوا بحقِّ الله

كيف تسمحون...!

3- حكايا القدس:

وصلُ الحبيبِ تخالُه الأرواح، لبُّ الحياةِ وروحُها والراح، وأنا بباب جلالكم مستمطرٌ، غوثَ السماء معارجٌ تتداح، ووجدتكم فوجدتني وتعاظمت في عين نفسي آيُكم وصِحاح، فإن اعترتني بعضُ أنواء الورى، قلتُ الهوى وحقيقُه فضَّاح، زادُ الوصال مدامعي ومجامعي، ووجيبُ قلبٍ يعتليه نواح، أن كان ما قد كان عالجه الفتى، أرسى النوالَ وأجرُه لوَّاح، يا ويحَ بينٍ يعتري جنباتنا، ويصبُّ في روح العليل جراح، قد زاد من ثقل الفجيعة عالمٌ لا يسوى في عين النبيه جناح!

4- حكايا القدس:

دعينا نرتشف من ذا المعين دعينا، سكرةُ العشاقِ تغشاها الظنونُ، مابال قلبي في الهوى متنقِّلًا، بين الحسان: قبابِها وأمينة، فأدير طرفي بالمحاسن كلِّها، صفراء غرَّتها تسرُّ الناظرين، أروي لحاظَ الوجد من جنباتها، وألثمُ الوجناتِ منها بالعيون، صهبا القبابِ منيةَ العشاقِ هل لدروب وصلك مسلكٌ يُرضينا!

أمَّ البنين توسَّدي عينَ الرضا، رفقًا بكهلٍ جاوز الستين، وعقالُ رأسي وشيبي والطوى، يلهج بحبِّك راسخًا ومكينا، لكنْ هوايَ في الحشا متمكِّنٌ، لا هجر فيه فخلِّنا ودعينا ..!

5- حكايا القدس:

ما الرجلُ إلا رهينُ عزمته وصنيعُ همَّته: تشططُ به الرؤى وتخلبُ لبَّه الأمانيُّ العراض فلا يجد في ما أطَّ صدره وأثقل فكره مندوحةً من مقاربةٍ يحاذيها التيسير فإفضاءٍ يجابه التسليم = ما دام رجلا، وإلا أُركس على فرش الوجل وزرابيِّ الوهن، لا تؤزُّه الرغائب ولا تشتاقه المعالي، قاعدٌ في خدره على قولةِ .. كُفيت!

أما وللهمةِ معتركوها ، وللعزمة سابروها، وللحظوة آخذوها، وللقمم رجال!

6- حكايا القدس:

وأبلغُ العدلِ الأرضيِّ قصاصٌ يجري على يد صاحب الحقِّ تنوء به خاصرة المعتدي، فيذهل هنيهاتٍ عمَّا أسفرت عنه قرائح بغضائه، ثم يؤوب لما كان منه: طبائعُ ودركات، لتعاجله مُكنةُ الحقِّ بمزيد أذًى يبلغ مأمنه، ويستلب وهم تمكينه، فيُصرع حيث أنشأ يُعلي صروح غلبته = لافكاك؛ جرفٌ من الطغيان هار، لا يهيله ثمةَ إلا من ذاقوا شبهةَ وباله، ثم يذهل هنالك المبطلون !!

7- حكايا القدس:

وكان أن رزقني الله وأسبغ علي من نعمائه: مالًا وولدا، فأُصبح أقلب كفيَّ لا أُحصي لرزقه عددا، وأمسي أمسح على رووس العيال، أسمي هذا وأسلو ذاك، حتى لتخالني لفرط بركة الله التي حلت على مرابعي صفيًّا من أصفيائه سبحانه، اختصني بالنعم فأعطى وأدهش.

ثم إنني أخذت أُحدِّث نفسي بالزيارة الشريفة، حتى لمّا تمَّ لي المراد، وقفلت مع الحجيج راضيا، راودتني تباريح الشوق لثالثهما، وكان من عادة قومي – وللعادات أحكام– تقديس الحجة بزيارة القدس الشريفة والصلاة في مسجدها، فيمَّمت وجهي شطرها مع جماعة من قافلة الحجيج كانت قد بيَّتت النية وأزمعت أمرها ألَّا ترد الديار حتى تنال شرف زيارة أولى القبلتين!

فلمَّا وطئت مرابعها، فتنسَّمت ريحها، وكحَّلت عينيَّ بإثمد صفرائها = حتى وجدت في صدري بردًا، ووقر في قلبي أنني لست بمفارقها وإن جُمعت لي كنوز الأرض، وإن خلت من الصحب و الآل، وإن تمالأ عليَّ إنسُ الأرض وجانها يحولون بيني وبين ما عقدت العزم عليه . وكان أن أتمَّ ربي عليَّ نعماءه بواسطة عقد النعم أن قدَّر لي تيسير أمري، فدخلتها من بابٍ لها مقدَّر، وما أن ولجت بيضتها حتى وجدت في وجوه قاطنيها تباشير الأهل والصحب، وطربت أذني لأصواتٍ صافحتها ليعمر قلبي على إثرها بسلامٍ ما وجدته بين الربع والخلان، فاستبشرت خيرا، وعزمت أمرا. ومضيت لتوي – بعد لين سؤال– إلى دارة حاكمها المولَّى على شؤون رعيتها، وبذلت بين يديه الأسباب والحجج، وأجزلت – لا منة– أرجو القبول، فتفكّر هنيهة احتبس لها الهواء في صدري، ثمَّ إنَّه راجع دفاتره وأمعن، وأنا كطائرٍ بينه وبين سدرته لفظةُ : أجل.

فلمَّا تمَّ له مراده من فحصٍ وتدقيق أزَّت له مراجل صدري خشيةً، حتى رفع إليَّ وجهًا بشوشًا باسما، مؤهِّلًا مُسهِّلا، فزفرت زفرةً خشيت معها لفظ فؤادي من مكمنه، وعببت هواء الرضا وقد غشيتني السكينة ترفعني عن أرضي درجات، فلا أجد لقدمي على أرض المارِّين أثرا!

واستقدمتُ الأهل والولد، وأقبلت قوافل خير الله تسعى إلى الأرض التي أسرت روحي وأعتقتها في آن، واتخذتُ من ابنة السماء وطنا : تحفُّني البركات وولدي ونسلي إلى يوم يبعثون، فكانت صدقتي عليهم جارية، وكانت صدقتها – هي– عليَّ، وتمام الاصطفاء والرضا!

إلى سماء

(1)

اليوم أحدِّثُكم حديثاً طالما أجَّلتُه، بل، وفررتُ منه فراراً ، وأبُثّكم لواعجَ حرفٍ أسكنتُها روحاً فلم تبقِ لي إلّاها في الحشا ديّارا.

فما قولكم في عاشقٍ يكابدُ حرَّ الجوى، فلا يجدُ منه لواذاً ولا عنه مصرفاً.

عشقٌ ملكَ عليه الحنايا، واستوطنَ منه الرزايا، فما عودُه عنه بالأحمد، وقد تجلّى في ملكوت كينونته وتجسّد.

تتهادى تسابيلُ الهوى كَلِماً أبيناً ، فتتهجّدُ له الأركان.

فما الحرفُ، وان أبان، ب...منصفٍ ، ولا الركنُ، وان استقام، بمعرِّفِ .

والحرفُ العصيُّ يناوئُ ويتمنّعُ أن يفارقَ مراتعَ السَّرائر، غازلاً نسجَ كلماتٍ أبَيْنَ إلّا أن يكنّ بناتاً للحُجُب.

كلماتٍ تختالُ على زُججٍ مُمرّدة، تخطو خطوَ بلقيسَ نحو سُليمانِها، المتسامقُ على عرشِه، وما تباعدَ سليمان، ولكنّ البعدَ كفر.

أما وقد آن أوانُ أن أينعت، وعن جهدِ مغالبَتِها تمنّعت،فما لها إلّا أن تبصرَ نورا كنبتٍ طيّبٍ يهاجرُ من رحم الرّوح إلى فضاءاتِ العلن، وتضوّع عبيرا، كطيبٍ تعتّقَ في قواريرِه، واستحلّ مقامَ الأبدان بعد تصبِّر.

أما وقد انتويتُ البوح، وبمقدّمتي طالَ الشّرح، فعليه وإن الإله شاء، لبياني أجزاء، ولكم أنتم بعد الثناء، الحكمُ على ما يكون، ولا تغلبكم الظّنون، حتى لما جهلتم تبينون، وأعدكم أن يختلفَ السرد، فيضحى هوناً وهذا وعْد، فهل أنتم معي ؟!!، أم عن ما انتويتُ أنتهي؟!!

(2)

كنتُ أقول، يا سادتي العدول :أنَّ من العشقِ ما استعصى على الكَلِم، واستمرأَ إعمالَ الكُلَم، فباتَ طيّاً في الحشا يجول ،وعن لُباباتِ النُّهى يحول، يؤُزُّ مِرجلَ الحرفِ أزَّاً ، فما اسطاعَ له غوثاً ولا رِكزا، حتى غالبَ ما استَعصَمَت ألسنُه، وغافلَ عَسَسَ الكُنَه، وجادَ البيانُ بما قد كان، بعدَ إعتاقِ العَوان، هذا وإنَّني أقول: صلّوا على الرّسول، عليه الصلاة و السلام واسمعوا حتى الثُّمالة، ما جاءَ في هذي المقالة .

(3)

كانت تلك مرَّتي الأولى التى أزورُ فيها مدينةَ القدس بالغةً واعية، بعدَ أن زرتها صغيرةً تتبعُ خطى أباها ممسكةً بيده لا تفارقُها.

كنتُ في سنتي الرَّابعة من كليّة الهندسة التابعة للجامعة الإسلامية، وكانت رحى السِّياسةِ قد أسلمت قيادها للسُّلطة الوطنيّة الفلسطينيّة بعدَ اتفاقِ أوسلو، وعليه، فقد غدا حلمُ زيارةِ الحرمِ القدسيّ ليس ببعيد، بعدَ أن كان منيةً لا تُرام، خاصّةً لأبناء القطاع الغزّي، وسم...عته الضاربة في جهادِ المحتل حد إجبارِه على إلتقامِ أذيالَ خيبتِه، وتسليم الدّفة لمن ينوب.

أذكرُ هذه السَّنةَ الجامعيةَ بالذّات لمساقاتِها الزخمة، المبالغ في صعوبتِها وتكدُّسِها، وكأنّها صفعةُ، الكليّةِ الأخيرةِ وانتقامها الفذ قبل تصديرنا لسوق العمل.

وكانت المكافأة بعدَ لأواءِ عامٍ طويلٍ طويل، وأيّ مكافأة!!

لكم أن تتخيلوا وقعَها على أرواحٍ تعتّقت في محاريبِ الأقصى، وأُشربَ عشقُه في قلوبها.

وبعدَ طولِ منعٍ يأتي الوصلُ كما ينبغي له أن يكون. وصلُ محبوبتِك الذَّهبية القاصية، والتي درجت على تقديمِ قرابينك للحظِ عينيها تبتغي الدَّارَ الآخرةَ وعداً من الله كان عنه مسؤولا.

تخيلوا معي، إن شئتم، أن بُشِّرَ أحدُكم بجنَّة الخلدِ وهو قائمٌ يسعى في حياته الدنيا أي نعم، كنّا كمن بُشِّر بجنته، يكادُ أن يطاولَ الجبالَ أو يخرقَ الأرض، علَّ السماواتِ

والأرضين تسع فرحتَه. فرحةً ملكت علينا الرّوحَ والجوارح، فبتنا نستعدُ لليومِ المشهودِ فجراً. المسافةُ بينَ مدينتي غزّةَ والقدس تقاربُ الثمانين كيلومتراً تعدُّ فيها مسافراً يجري عليك حكمُ المسافر، تَقصرُ فيها الصّلاةُ وتَجمع، وتفطرُ حالَ صيامِك رمضانا.

جهزتُ حقيبةَ سفري، وأذكرُ أنّني حملتُ معي سكيناً، رغمَ تحذيرٍ مسبقٍ بعدم حمل أيَّ معدنٍ معنا، واصطحبتُ آلةَ التصوير، تذّكروها، الخاصة بوالدي، وأوصلني والديّ، كما اعتادا، أرضَ الجامعةِ من بعدِ صلاةَ الفجرِ مباشرةً ، حيثُ تربضُ حافلةٌ انتوت حملنا ...إلى الجنّةِ الذّهبيّة.

(4)

انطلقت حافلةُ الخيرِ بنا مجتازةً أرضَ القطاع الغزيّ مروراً بحاجز (إيرز)، وهو حاجزُ تفتيشٍ صهيونيّ يفصلُ أراضي القطاع عن أراضينا المحتلة في الداخل الفلسطيني، والتي، وتجاوزاً كما اشتُهرَ سياسيّاً، تُعرفُ ب :

1- أراضي ال (67)، الضِّفة الغربيّة المحتل جلُّها والمسلَّم بعضُها تنسيقيّاً لحكومة رام الله، كمثلِ مدن :نابلس،الخليل، أريحا، رام الله، وغيرها

2- أراضي ال (48)، المحتلة منذ النَّكبة والتي من... وقتها إلى زماننا هذا ترزحُ تحت سيطرة الإحتلال الصهيوني، كمثلِ مدن الساحل الفلسطينيّ الأشهر : عكا، يافا، حيفا، وكمدينة القدس، وغيرها من مدننا وقرانا المحتلة .

عندَ حاجزِ التفتيش الصُّهيوني وقفت حافلتُنا لساعاتٍ عدَّة، تعنتاً كعادتهم، وبعدَ ساعاتَ الإنتظارِ المُذلَّة لأهلِ بلادٍ يتنقَّلون فيها، ويرون تنقلَّهم ذاك حقّاً لا يتخلون عنه، رغمَ كلِّ التعقيدات الأمنيَّةِ المدروسة، ورغم عنجهيتهم وصَلَفهم، لازالوا يصِّرون على مدِّ جذورِ وصالِهم مع داخلهم المحتل رغم أنوفهم، ورغم ما يلقون منهم.

أقول: خضعنا لتفتيشٍ معقّد، مررنا من خلاله ببواباتٍ إلكترونية وأجهزةٍ كشف كما في المطارات الكبرى، أعودُ وأقول أنه حاجزُ تفتيشٍ عاديٍّ صغير، كنَّا نراهم من وراءِ جدرهم،

متمترسين خلفَ حصونهم المانعة لاختراق الرّصاص، ويا للمهزلة، يلبسون خوذاتهم ويحملون أسلحتِهم.

بعدَ تجاوزنا للتفتيش الإلكتروني، عمدوا بنا ...إلى التفتيش الذّاتي!!، أي نعم، الدولةُ، الكيان المحتلُ، الأمنيّةُ الأولى عالميّاً، ومن ضمن الأعلى تسليحاً في العالم تفردُ عضلاتِها وتبرهنُ على استحقاقِها لسمعتها.. عند حاجزِ تفتيشٍ صغير.
أذكرُ المجنّدةَ الصُّهيونية والتي بعد أن انتهت من تفتيشي نادتني :(نينجا)، و أذكرُ أنّني قد مددتُ لها لساني هازئةً متحدِّية، ولكن.. ويا للأسف، تذّكرتُ بأنّ نقابي سيحولُ دونَ أن تراهُ يسخرُ من وجودها العابر على أرضي.

(5)
أُكملُ ما انقطعَ فأقول :
حتى إذا ما اجتزنا المخسوم – حاجزَ التفتيشِ – الأول بعد طولِ عناءٍ وانتظار، واحتياطاتٍ أمنيَّةٍ مبالغٍ فيها، انطلقت حافلتُنا تُكملُ بنا رحلتَنا المباركةَ الى جنَّتِنا الذهبيَّة.
كنتُ طوالَ الطريقِ الممتد ألقاً لا أكادُ أحرّكُ ساكناً فيَّ أبدا ، حتى عيناي، أعتبُ عليهما رمشةً تجتاحهما على غفلةٍ منيَّ قسرا.
كمن خضعت أركانُه، وارتُجَّ عليه بيانُه، في محرابٍ يتعبد، قد سلّمَ – من روعاتِ ما يجد – قيادَ أمرِهِ لفؤادِه يلهجُ عشقاً، وقد دارَ بينَه وبين ذرّاتِ كلِّ ما خُلِق حولَه حوارُ وصلٍ طويل، وقد توارت به الحُجُب عن صخب.
ملتزمةً نافذتي، متشبِّثةً بها، ينهلُ كلُّ ما فيّ ممّا حولَه، بل يعبُّهُ عبّا، وإنّني والله – وأنا التى شهدت طبيعة أوروبا سياحةً – ما وجدتُ إلّا جمالاً كما ينبغي للجمالِ أن يكون، الجمالُ البكر ، في صورته الأولى، فلا يبزُّه فيه لا شرقٌ ولا غربٌ أبدا، بل .... وعنه اقتبس .

جمالُ الجلال، وجلالُ الجمال ؛ أشجارٌ ليست كالأشجار ، وكأنّها تنزَّلت توَّاً من علياءِ جِنان، حباتُ رملٍ تكادُ تسمعُ بواعثَ عشقِها قصيداً، ألوانٌ مترعات لم يُجعل لها من قبلُ سميٌ، لم أُحصها عدداً من تنوُّعِها.

أوَ دارَ بينك وبين لونٍ في يومٍ ما حوارٌ بليغٌ طويل؟!!، هذا ما حدث معي ، حواراتٌ تتصل، وعُتبى غياب، ووعودٌ ونذور.
التقطت أنفاسيَّ- وما كدتُ أفعل- في استراحتنا الأولى، متنزَّه فردوسيّ بُنيَ على أنقاضِ قريةٍ عربيّة، فوالله لو مِتُّ بعدها لكان كفايتي من الدنيا وما فيها .. وكفى!
أكملنا طريقنا بعدها، حتى حلَلَنا أريحا – مدينة القمر-، أقدم المدنِ المعمورةِ تاريخيّا على الإطلاق، وأخفض بقعةٍ في العالم عن سطح البحر، أريحا الكنعانيَّة، مدينةُ الجبّارين في الغور من أرض الأردن والشام.
فما أن شارفنا مساكنَ القومِ الذين ظلموا أنفسَهم – البحر الميت هو مكان الخسف بقرى قوم لوط ويقال لها سدوم – ، حتى نكَّستُ منيَّ الرأس ودعوت، وفارقناها مسرعين كما جاء في هديه صلى الله عليه وسلم.

ولانخفاضِ المدينةِ عن سطح البحر متلازمةُ دوارٍ معروفة، غالبناها مغالبةً، حتى وصلنا إلى أطلالِ القصرِ الذي شيَّده الخليفةُ الأُموي هشام بن عبد الملك .
وكما هو الحال مع معظم الخلفاء العرب فقد فضَّلَ الخليفةُ هشام بن عبد الملك حريَّةَ الصحراء على حياة المدينة في العاصمة دمشق.
القصرُ كان عبارة عن مجموعة من الأبنية وأحواض الاستحمام والجوامع والقاعات الكبيرة.
تجوّلنا فيه- أو في أطلاله- ذاكرين اللهَ – مالكَ الملك والملكوت- متدبِّرين.
فسبحان الله أن المالك لشيء من عاريات هذا الوجود من بنى آدم سرعان ما يفقده بالبيع، أو الاستبدال، أو بالهلاك والدمار بمختلف الكوارث، أو بالموت والميراث. وتظل المواريث تنتقل من يد إلى يد إلى قيام الساعة حين يعود كل شيء إلى مالكه الحقيقى وهو الله – سبحانه وتعالي- الذى له ميراث السموات والأرض.

الخاتمة ..

وكما قيل: فإنَّ علَّةَ النجاح أعداءٌ لك تتربَّص، ماهيَّتهم: علَّتهم فيهم... فاربأ بنفسك عن مهازلَ تشغلك؛ عن سموٍّ تُقعدك فتشقى، أو أحقادٍ تحوطك؛ عن نفحته فيك تُقصيك فتردى.

وعليك نفسك: هبها للإله تصل، وشاغلها بالمعالي تُشغل، وارعَ منك حشاشتك: تعهَّدها بجلوةِ نيَّتك، وصفاء طويَّتك. وارقب قولك: نقِّهِ وزنه، فإنَّه رسولُك عنك، واقرنه ما استطعت بعمل؛ أخلِصْه، ونزِّهه عن شرك الهوى.

واخفض لخلقه جناحك ما خفق نابضُك: صِلهم ولا تصاولهم، وجاهر بمحبتهم؛ تحز قلوبهم، فيرق لك المجادل، وتُغمد أنصال المصاول.

وإياك وذوي الأنا: لا تنفث فيهم أناهم، فيحلُّ عليك من نقمته عليهم: نقمةَ إذكائها فيهم، ولا تقعد معهم فيصيبك الكدر، أو بعض شرر. وإياك والجدال، فإنَّه مشأمةُ العلم، ومذهبةُ الحلم، ولا تنتصر لنفسك؛ تظلمها، وزكِّ عن ما وهب: أن قد غفرت، وعفوت عمّا سلف.

* * *

انتهى بحمد الله وتوفيقه

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ
وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ
مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

الآية آل عمران 26

الفهرس

الإهداء..... 2
المقدمة..... 4
القصة 10
نملة الجبل 11
إياك وذى العتبة..... 15
طرائق قددا... 17
بينه وبينها..... 30
حكمة دعسوقة..... 34
من الذى أوصد الباب فى وجه عائشة ! 38
اللقاء الهندسى.. عين الرضا..... 41
فقه الجمال..... 44
اللهم قوقز رجالنا 45
مذكرات امرأة فقدت ظلها 46
مذكرات رجل خسر ظله 47
أنا الغريبة 48

سديم قلب 50
صفا.. انتباه 52
بروج القلب 55
عابرُ... ميناء !! 58
وأنا أُفضِّلُ الأباتشى..! 60
غريب 62
أحوالهن معهم 63
خيَّا 74
جدود 79
صوت إسرائيل من أورشليم القدس 85
حكايا القدس 95
إلى سماء 101
الخاتمة 107
الفهرس 109